الباب الثالث

مراحل التمكين وأهدافه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مراحل التمكين.

الفصل الثاني: أهدافه.

مراحل التمكين وأهدافه

تمهيد:

إن التمكين لدين الله في الأرض يمر بمراحل لا بد منها وهذه المراحل هي: مرحلة التعريف، ومرحلة الإعداد والتربية، ومرحلة المغالبة، ومرحلة الظهور، وكل هذه المراحل سنتعرضها في مباحث مستقلة في هذا الباب ونركز على السنن الربانيّة التي تمر بها حركة التمكين لدين الله تعالى.

وأما أهداف التمكين فجامعها قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج 41].

ويدخل تحت مفهوم هذه الآية الكريمة أهداف الدولة الإسلامية التي تسعى لتحقيقها وهي في حقيقتها تحقيق العبودية لله بحيث لا يعبد في الأرض سواه، ومحاربة الباطل بأشكاله وأنواعه، ومناصرة الحق وأتباعه، ففي هذا الباب نحاول أن نبين أهداف التمكين التي تسعى الدولة لتحقيقها؛ من ترسيخ دعائم الدولة، ونظام الحكم الشرعي، وإيجاد الحاكم الصالح، والرعية الصالحة، ووضع نظام عام للدولة، ونشر دعوة الله في العالم كله وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجلب المصالح للأمة، ودفع المفاسد وإحياء الأخلاق الكريمة وإحياء فريضة الجهاد وغير ذلك من الأمور التي سنوضحها في هذا الباب تحت مباحث متعددة بإذن الله تعالى.

الفصل الأول

مراحل التمكين

تمهيد:

إن دعوة الله أمانة يتحملها أهل الإيمان الصحيح، وهذه الأمانة ثقيلة في حد ذاتها، وكذلك حملها وأداؤها، والوفاء بها، فكيف وهي متعلقة بدين الله تعالى؟ ولذلك فإن من أعظم الأمانات وأشدها ثقلاً أمانة الدعوة التي تحتاج إلى رجال مؤمنين يتخلقون بأفضل الأخلاق الربانية ونفوسهم ملأى بالإيمان العميق، فهم على استعداد تام لتبليغ دين الله ولذلك فهم يسعون بدين الله حتى يتمكن من قلوب النَّاس وإقامة دولة الإيمان والإسلام.

إن مرحلة التمكين أو إقامة دولة الإيمان تسبقها مراحل، استخلصها العلماء من دراسة كتاب الله ودراسة التاريخ المتأنية ولعل من أهم هذه المراحل:

- مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام.
- مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة.
- مرحل المغالبة.
- مرحلة الظهور.

وسنحاول خلال هذا الفصل دراسة هذه المراحل وتحديد السمات التي تتميز بها كل مرحلة وكيفية تحقيقها والانتقال بها إلى المرحلة التي تليها لا سيما المرحلة الأخيرة مرحلة التمكين.

إن استيعاب مراحل التمكين يعين الدعاة إلى الله على تحقيق هدفهم المنشود من التمكين لهذا الدين كما يبصرهم بحقيقة الطريق ومعرفة عوائق التمكين التي تعترض تحقيق أهدافهم وكيفية التغلب عليها من خلال القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين وتاريخ الأمة المجيد والتعامل مع سنن الله الربانية المبثوثة في الكون، والحياة، والشعوب، والمجتمعات.

المبحث الأول

مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام

إن الخطوة الأولى في سبيل إقامة الدولة المسلمة أو التمكين للإسلام هو التعريف به والدعوة إليه، وقد كان هذا نهج الأنبياء والمرسلين ومنهج القرآن، والدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يورثون مالاً ولا عقاراً، ولكنهم يورثون علماً ودعوة ومبادئ وقيماً وأخلاقاً وعقيدة صحيحة وتصوراً سليم للكون والحياة والإنسان والخلاّق العليم.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد بيّن لنا في كتابه وظيفة رسل الله والدعاة إليه كما في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

وتمثل هذه الواجبات الأمور الآتية:

أولاً: تبليغ وحي الله إلى النَّاس، وتعريفهم به ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ ويكون هذا التبليغ بالأمور الآتية:

1 ـ شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

2 ـ تفسير نصوص القرآن والسُّنَّة تفسيراً متبعاً لمنهج السلف وملائماً للعصر الذي يتم فيه التفسير من حيث الأسلوب والوسيلة.

3 ـ جمع النَّاس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

4 ـ استهداف كل النَّاس بالدعوة، سواء كانوا مشركين، أو نصارى، أو يهود، أو ملاحدة أو علمانيين، أو منافقين، أو فاسقين، أو عصاة مع إعطاء الأولوية للصف الداخلي للأمة[1].

---

(1) انظر: حقيقة الدعوة إلى الله للأستاذ الدكتور علي عبد الحليم (1/ 263).

5 ـ بيان الأخطار التي تواجهها الأمة الإسلامية من أعدائها والعمل على اجتيازها في حدود ما تتطلبه المرحلة.

ثانياً: تزكية النَّاس، أي تزكية نفوسهم وتطهيرهم وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقاً للأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، والتزكية بهذا المعنى، تارة تنسب إلى الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 49] وتارة تنسب إلى النبيّ ﷺ؛ لكونه واسطة في وصول ذلك إلى النَّاس كما في هذه الآية ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾. فالداعية إلى الله، يطهر نفوس النَّاس بوحي الله، وينمي أرواحهم وعقولهم وأبدانهم، ويرتفع بهم إلى المستوى الذي كرمهم ربهم وفضلهم على كثير من خلقه. وهذه التزكية تربية ذات منهج ووسائل تنقل الإنسان من واقعه إلى ما هو أفضل وأكرم وأحسن له في أمر دينه ودنياه.

ثالثاً: التعليم، تعليم النَّاس العلم النافع، أي القرآن والحكمة، وذلك في قوله سبحانه من هذه الآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، فهو واجب النبيّ ﷺ، وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو القرآن الكريم، وهو هدى للناس، كل النَّاس، فما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا نوه عنه القرآن الكريم، وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن الكريم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: 111]، و﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89].

إن تعليم النَّاس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ينقلهم من ظلام الجهل إلى نور العلم، ومن ضلال الباطل إلى هداية الحق، وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ أي يبصركم بحاضركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

إن هذه الواجبات المنوطة بالدعاة تحتاج إلى تميز إيماني وتفوق روحاني، ورصيد علمي وزاد ثقافي ورجاحة عقل وقوة حجة، ورحابة صدر وسماحة نفس؛ حتى يستطيع الدعاة تحقيق واجباتهم المذكورة.

إن القرآن الكريم قد بين واجبات الدعاة في آيات كثيرة، ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: 39].

إن التقصير في القيام بهذا الواجب إثم ومعصية، ولقد بين المولى ـ ﷻ ـ ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي

﴿ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

والمعنى أن من عرف الحق، فقد وجب عليه أن يبينه للناس، ومن لم يفعل فقد أثم.

كما نعى الله ذلك الكتمان على أهل الكتاب في قوله تحالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

وإذا كانت آيات القرآن الكريم قد أوجبت على الدعاة، وأهل العلم، أن يبلغوا النَّاس بهذا العلم فإن السُّنَّة المطهرة شارحة القرآن قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال: روى الإمام البخاري بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما، باب تحريض النبيّ ﷺ وفد عبد القيس[1] على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من وراءهم، قال مالك بن الحويرث[2] ـ وهو من بني عبد قيس ـ قال لنا النبيّ ﷺ: «**ارجعوا إلى أهليكم فعلموهم**». وعن ابن عباس قال: قال النبيّ ﷺ، لما قدم إليه وفد عبد القيس: «**من الوفد** ـ أو **من القوم؟**» قالوا: ربيعة، فقال: «**مرحباً بالقوم** ـ أو **الوفد** ـ **غير خزايا ولا ندامى**»، قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا، ندخل به الجنة، فأمرهم بأربعة ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله عزّ وجلّ وحده قال: «**هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم**».

ونهاهم عن الدباء[3] والحنتم[4] والمزفت[5] ـ قال شعبة[6]: ربما قال: النقير[7] وربما قال: المقير[8].

---

(1) عبد قيس: من القبائل التي كانت تسكن الجزيرة العربية، وهي من بطون ربيعة.

(2) هو مالك بن الحويرث، أبو سليمان الليثي، صحابي، نزل البصرة، مات سنة 74 هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص 516.

(3) الدباء: القرع.

(4) الجرة أو الجرار الخضر تعمل من الطين.

(5) ما طُلِي بالزفت.

(6) هو شعبة بن الحجاج الوردي أبو بسطام الواسطي، ثقة، حافظ متقن، كان مدافعاً عن السُّنَّة، ت 16هـ. انظر: تقريب التهذيب، ص 266.

(7) أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء.

(8) ما طلي بالقار.

قال: «**احفظوه وأخبروه من وراءكم**»[1].

وروى البخاري بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار**»[2].

وخلاصة الآيات الكريمة والسُّنَّة النبوية الشريفة فرضية العين على من توفرت فيه الأهلية لممارسة العمل في هذه المرحلة ألا وهي مرحلة التعريف.

وعندما يكون المتصدرون لمرحلة التعريف دعاة ربانيين يمكنهم أن يحققوا هذه الأهداف:

1 ـ التعريف بالإسلام تعريفاً صحيحاً:

ويكون ذلك بشرح أصول الإسلام، وقواعده، وآدابه، وأخلاقه، ومنهجه ونظامه في حياة النَّاس، ويفسر للمدعو كل مجمل، ويوضح له كل غامض، وييسر له كل ما يتصور أنه عسير أو صعب، ويكون ذلك وفق تخطيط وتنظيم وتنسيق بين الدعاة، كما يستدعي هذا العمل تخصصاً يوزع بين الدعاة حتى يصل الإسلام إلى كل إنسان مهما كان مستواه التعليمي أو الثقافي، أو الاجتماعي.

2 ـ تكوين قاعدة عريضة من المدعوين:

تكون هذه القاعدة على أسس من الفهم السليم، والاستيعاب العميق لحقيقة الإسلام وأخلاقه وآدابه، بحيث تكون هذه القاعدة من شرائح المجتمع المتنوعة، من فلاحين، وأصحاب حرف ومصانع وعمال، وتلاميذ في المدارس وطلاب في الجامعات وموظفين في الحكومة أو القطاع العام أو الخاص، ومن المثقفين أصحاب الثقافات المتعددة وأعضاء النقابات المهنية والمنتمين للأحزاب السياسية، وأصحاب الرأي والفكر، وأعضاء هيئات التدريس في الجامعات وغير ذلك من شرائح المجتمع، والواجب على الدعاة في مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام أن يعملوا على إيصال الدعوة الإسلامية إليهم بسورة قادرة على مواكبة العصر ومتطلباته والمتغيرات وظروفها، وأن يضعوا لهم تصورات دقيقة لمشكلات الحياة من منظور إسلاميّ يدل على شمولية هذا الدين، وأنه يتناول مظاهر الحياة جميعاً من دولة ووطن وحكومة وأمة وخلق وقوة، وعدالة ورحمة، وثقافة وقانون وعلم وقضاء وعقيدة

(1) البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس (1/ 23) رقم 53.

(2) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر من بني إسرائيل (4/ 175) رقم 4361.

صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء، ويكون تكوين القاعدة الصلبة التي تحمل الإسلام بالتنسيق والتعاون بين الدعاة أنفسهم، فتهتم مجموعة من الدعاة بتثقيف المزارعين وتربيتهم، وأخرى في أوساط أصحاب الصناعات والحرف، ودعاة يعملون في مجال طلاب العلم، ودعاة في أوساط الانتماءات الموالية أو المعادية للإسلام وآخرون في مجال النقابات، وفي مجال أصحاب الانتماءات السياسية والحزبية، وفي مجال أصحاب الفكر والرأي وفي هيئات التدريس في الجامعات، ويكون بين الدعاة تعاون وثيق وتنسيق مستمر وتنظيم دقيق وتخطيط رشيد وإدارة واعية وقيادة حازمة، ولابد من توفر صفات الدعاة فيهم وإلاّ عاد ذلك الجهد بمردود سيئ على الدعوة والمدعوين وعلى العمل الإسلاميّ كله.

إن أمر التعاون بين الدعاة واجب شرعي قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: 2].

إن الدعوة ليست محصورة في مجال معين، أو وسيلة واحدة بل هي ميدان رحب، ولها وسائل شتى، وذلك يعني أنه لا بدّ من بذل جهود عظيمة ولابد من إدراك أن الداعية مهما تعددت مواهبه فإنها تقصر عن الإبداع والإتقان في كل مجال، فهناك من يستطيع الخطابة ويجيدها، وهناك من يحسن التأليف ويتقنه، وهناك من ينشر العلم ويدرسه، وهناك من يعرف العمل السياسي، وآخر يبدع في العمل الخيري، وهكذا ولا يتصور أن تغطى هذه المجالات إلا باستفراغ كل داعية جهده في مجال إتقانه ليحصل التكامل، ورحم الله الإمام مالك إمام دار الهجرة الذي نصب نفسه في ميدان من أعظم ميادين الدعوة وهو نشر العلم الشرعي فكتب إلى من يدعوه إلى غير ذلك[1] فقال: «إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح الله لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر»[2].

ولا يشك أحداً أن الأمة الإسلامية تشكو لخالقها قلة الدعاة وغلبة الجهل، وضياع العلم، وتفشي المنكرات مما تحتاج معه إلى جهود ضخمة لإصلاح الأحوال؛ ولا يكون ذلك إلا بالتعاون؛ لاستثمار هذه الإمكانيات بأقصى ما يمكن والإفادة من التجارب، وتبادل الخبرات.

إن أعداء الإسلام يحرصون على بث أسباب الشقاق، وزرع بذور النزاع بين المسلمين

(1) انظر: مقومات الداعية الناجح للدكتور علي بادحدح، ص 147.
(2) نزهة الفضلاء (2/ 625).

عموماً، وأعيانهم من العلماء والدعاة خصوصاً، وهذا يحقق لهم من الأهداف والغايات ما لا يستطيعون بلوغه بجهدهم وكيدهم، وذلك أن الهدم من الداخل أشد فتكاً وأعظم ضرراً؛ ولذا كان خطر المنافقين أكبر وأظهر، وإن عدم إدراك هذه الحقيقة يجعل الداعية يخالف إخوانه من الدعاة لأي أمر عارض، أو خلاف في أمر يسوغ فيه الخلاف، أو تحمساً لفعل لم ير غيره أنه يناسب في هذا الوقت ونحو ذلك، فيسعى حينئذ إلى مواجهة إخوانه الدعاة بدلاً من أعداء الله، ويتفرغ لتسقط أخطائهم، وتتبع عثراتهم، فيفرح بذلك أعداء الله، بل إنهم يسعون لذلك ويثيرونه، فعلى الداعية الحصيف أن يفوّت عليهم الفرصة وأن يخذلهم باتباع الحق، وفهم حقيقة الاختلاف المبني على الاجتهاد وإحسان الظن بإخوانه، والتماس العذر لهم، والحرص على حماية أعراضهم، وسمعتهم، والحرص على التعاون، لإشاعة الخير[1]، وله في ذلك نماذج من الأئمة والعلماء، فهذا الإمام أحمد بن حنبل جاء في سيرته أنه كان إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد وقيام بحق واتباع لأمر سأل عنه، وأحب أن يجرى بينه وبينه معرفة، وأحب أن يعرف أحواله. وهذا الشافعي يناظر يونس الصدفي فيختلفان ويفترقان، قال يونس. فلقيني «أي الشافعي» فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة؟[2]. وهذا ابن المبارك سمع رجلاً ينال من آخر وينتقده، فقال له ابن المبارك: هل قاتلت الترك؟ قال: لا، قال: فهل قاتلت الفرس؟ قال: لا، قال: فهل قاتلت الديلم؟ قال: لا، قال: أفسلم منك الترك والفرس والديلم، ولا يسلم منك أخوك المسلم؟[3].

إذا ما بدت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسط ... أذى ولا مانع خيراً ولا قائل هجرا

إن في أعدائنا كفاية لاستنفاذ جهودنا في حربهم، ومواجهتم فكيف نغفل عن هذا ونوجه سهامنا لبعضنا[4].

إن نجاح الدعاة في تنظيم جهودهم ووضعها وفق خطة شاملة وتوحيد قيادتهم يعين العاملين في مجال الدعوة على تحقيق أهدافهم ويستطيعون أن يبذلوا طاقاتهم في البناء وانتقاء العناصر الجيدة التي تعتز وتنتمي إلى الإسلام وتثبت على هذا الاعتزاز وتتجرد ممن سواه،

---

(1) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 149.

(2) نزهة الفضلاء. تهذيب سير أعلام النبلاء، للدكتور محمد حسن عقيل (2/ 734).

(3) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 149.

(4) المصدر نفسه.

وتورثه إلى غيرها من النَّاس ممن تظهر حماستهم والتزامهم الحاسم بكل ما هو إسلاميّ ويستطيع الدعاة أن يفرزوا قاعدة قوية بين النَّاس تؤمن بالعمل الجماعي للإسلام وتراه فرضاً عليها، وعلى كل المسلمين القادرين على العمل، وتكون تلك القاعدة طليعة لقاعدة أوسع من العاملين للإسلام، في عمل جماعي تشرف عليه لجان مشكلة على كافة مستوياته الفكرية والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، والحركية، والدعوية، وفق خطط مجهزة، وتنظيم محكم، وإدارة واعية، وتربية عميقة، يشرف عليها علماء ربانيون وفقهاء عاملون مستوعبون للحياة الإنسانية وقضاياها ومشكلاتها.

وسائل الدعاة في هذه المرحلة:

لقد انتشر في هذا العصر العلم وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية وازدهرت فيه الخطابة والكتابة وعمت الجامعات في كل مكان، وكذلك المدارس في المدن والقرى والجبال والسهول والأرياف، وتدفقت السيول من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر، ونبغ فيهما علماء باحثون، ووعاظ مرشدون، فلهذا يجب على الدعاة أن يتبعوا كل أسلوب يوصلهم إلى قلوب النَّاس ويحقق الهدف المطلوب من نشر الدعوة، وعليهم أن يعتمدوا الأساليب الحديثة التي استغلها أعداء الإسلام في بث عقائدهم، ونشر أفكارهم وعلمهم وعليهم أن يطوروا هذه الأساليب حتى لا تتعارض مع دعوتهم ولا تصدم بقواعد الدين[1].

وقد حدد القرآن الكريم الأساليب العامة للدعوة الإسلامية في آيات كريمة منها قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

ولنستشعر إعجاز القرآن في قوله ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ونشعر بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها فأطلق وقال: ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، ما حدد وما عين شيئاً معيناً خاصاً، فيدخل في ذلك الحث على الصلاة ودعوة النَّاس إلى مكارم الأخلاق والفضيلة وإلى تطبيق شرع الله على أنفسهم وأهليهم. و﴿سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ يحوي كل شيء ويمتد على اتساع جميع الآفاق. وهو لا يختص بالخطابة ولا يختص بالكتابة ولا يختص بالوعظ والنصيحة إنما قال ﴿ٱدْعُ﴾ والدعوة عامة شاملة هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها[2].

(1) انظر: أسس الدعوة، محمد السيد الوكيل، ص 21.

(2) انظر: حكمة الدعوة وصفة الدعاة لأبي الحسن الندوي، ص 8.

ويقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى: «إن الدعوة دعوة إلى سبيل، لا لشخص الداعية ولا لقومه، والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة، حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه»[1].

ويقول أيضاً: «بالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو عن حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ»[2].

ويقول أيضاً في معنى الجدل بالتي هي أحسن: «أي بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح، حتى يطمئن الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق»[3].

وعليه تكون الأساليب العامة للدعوة إلى الله ثلاثة هي:

1 ـ الحكمة.

2 ـ الموعظة الحسنة.

3 ـ المجادلة بالتي هي أحسن[4].

وعلى الدعاة ألا يغفلوا الوسائل الحديثة التي ظهرت في هذا العصر، وكان لها الأثر الكبير في سلوك النَّاس ومعاملاتهم وأفكارهم ومن هذه الوسائل:

1 ـ وسائل الإعلام:

وهي بكافة أنواعها أسلوب جيد إذا أحسن استغلاله، فالصحف اليومية والمجلات الشهرية أو الأسبوعية، والنشرات الدورية، والوسائل السمعية «الإذاعة» والوسائل البصرية «التلفاز ـ والتسجيل المرئي ـ الفيديو» وحتى «الآلة الحاسبة الدقيقة» «الكمبيوتر» فكل هذه الوسائل

(1) في ظلال القرآن (4/ 2202).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) انظر: الدعوة الإسلامية بين الفردية والجماعية، لسليمان مرزوق، ص 19.

يمكن أن تستخدم في مجال الدعوة، ويمكن استخدام القصة للتأثير في نفس السامع والقارئ والتمثيليات الهادفة التي تبعث في النفوس الطموح، وتثير فيها حب الجهاد في سبيل الله، وتدعو إلى الفضائل والأخلاق الحميدة. وهناك الأناشيد الحماسية التي تشعل في النفوس الحماس والانطلاق للدعوة في سبيل الله، وفي تاريخنا مادة دسمة تغذي هذه الموضوعات.

لا شك أننا إذا قدمنا للناس هذه الألوان من الأساليب وهي تحمل في معانيها ما تدعوهم إليه من العقيدة الصحيحة، والإيمان العميق، والأخلاق الفاضلة، والمثل العالية والآداب والتقاليد التي نعتز بها، نكون قد ولجنا إلى قلوبهم من حيث يجب أن نلج ونكون قد قدمنا لهؤلاء المولعين بهذه الأساليب عوضاً عما يلهثون وراءه من هذه التفاهات التي استولت على عقولهم فأضلتها عن الحق. فحينئذ نستطيع أن نتحكم في قلوب النَّاس وعقولهم، فنملأها بالحق بدل الباطل، ونغذيها بالفضائل بدل الرذائل، ونوجههم إلى الخير والصلاح[1].

2 ـ الكتب والبحوث:

امتلأت الدنيا بالمؤلفات، وأصبح في كل بيت مكتبة، بل في كل مكتب مكتبة، وكثرت دور النشر، وشجع تقدم فن الطباعة على مضاعفة المطبوعات بشكل هائل.

إن الكتب والمجلات الجنسية والروايات والقصص، وكتب الجريمة والفساد، وكتب الأفكار الهدامة والمنحرفة انتشر في دنيا النَّاس انتشار النار في الهشيم بكافة اللغات والوسائل، فيجب على الدعاة أن يكتبوا الكتب والبحوث بأسلوب سهل ممتع وجذاب، يفهمه عامة النَّاس وخاصتهم، وتعرف النَّاس بالإسلام وتشرح لهم تعاليمه وتقنعهم أنه منهج كامل يتناول شؤون الحياة جميعاً، وأنه كفيل بإسعاد الناس وجلب الرخاء والأمن والسلام لهم جميعاً حيث إنه أوجد حضارة مشرقة وتاريخاً مجيداً يوم أن طبَّق تطبيقاً صحيحاً. ويحسن أن تعرض هذه الأفكار ونظيراتها في كتيبات يسهل حملها كما تسهل قراءتها، بحيث تكون كل فكرة أو بحث في كتيب على حدة، وتتسلسل في ربط قوي، وجاذبية مؤثرة تجعل القارئ لا ينتهي من كتيب حتى يجد نفسه مشدوداً إلى قراءة الذي يليه[2].

وهكذا يسعى الدعاة إلى توظيف كل الوسائل من الخطبة والمحاضرة والدرس والمناظرة... إلخ للتعريف بدعوة الإسلام، ولابد لهم من استيعاب فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووسائله وأساليبه وأن يهتموا بإقامة المنشآت والمؤسسات النافعة التي تجلب الخير

(1) انظر: أسس الدعوة، ص 20.

(2) انظر: كيف ندعو الناس، لعبد البديع صقر، ص 75.

للناس وتدفع عنهم الشر ولا بد أن يكون الدعاة الذين يتصدون لتعليم النَّاس وتعريفهم بدعوة الإسلام قدوة بين النَّاس، لأن القدوة هي الصورة الحية للفكرة، والتطبيق العملي للدعوة، والتوضيح الجلي للحجة، ولاشك أنها من أعظم أسباب بذر المحبة في القلوب، ووجود القناعة في العقول «وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة ولاسيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها»[1].

ولله در ابن القيم حيث قال: «إن النَّاس قد أحسنوا القول فمن وافق قوله فعله فذاك الذي أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبِّخ نفسه»[2].

ولابد من التأكيد على أهمية عنصر القدوة وخطورة انعدامه حيث «يستطيع الإنسان أن يكون عالماً جهبذاً في الكيمياء أو العلوم أو الطب أو الهندسة أو غير ذلك من العلوم التي أمرنا الله بتعلمها لتعمر الدنيا، ولكن هذه العلوم لا تتطلب منا قيداً سلوكيًا، فقد تكون عالماً في أي فرع من هذه العلوم وسلوكك تبعاً لهواك ولكن هذا لا يفسد الحقيقة أنك عالم في علمك؛ لأن النبوغ لا يضع قيداً على الأخلاق إلا علم الدين فإنك إن كنت من علمائه أو الداعين إليه أو المتدينين المخلصين لابد أن تكون قدوة حسنة لما تدعو إليه وإلاّ لما استمع إليك أحد»[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ: «قال غير واحد من السلف: الحكمة معرفة الدين والعمل به»[4].

والعلم بلا عمل حجة على صاحبه يوم القيامة، ولهذا حذر الله المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: 2 ـ 3].

قال الشاعر:

يا أيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَه ... هلاَّ لنفسِك كان ذا التعليمُ

ابدأْ بنفسِكَ فانْهَها عن غيِّها ... فإذا انتهَتْ عنهُ فأنتَ حكيمُ

(1) مجموع الفتاوى لابن باز (3/110).
(2) الفوائد، ص 192.
(3) الدعوة قواعد وأصول، لجمعة أمين، ص 111.
(4) درء تعارض العقل والنقل (9/ 22، 23).

فهناك يُقبَلُ ما تقولُ ويُقتدى ... بالعلمِ منك وينفَعُ التعليمُ
تَصِفُ الدواءَ لذي السّقامِ منَ الضنا ... كَيْما يَصِحَّ بهِ وأنتَ سقيمُ
أراكَ تلْقَحُ بالرَّشادِ عقولَنا ... نُصْحاً وأنتَ منَ الرشادِ عديمُ
لا تَنْهِ عنْ خُلُقٍ وتأتي مِثْلَه ... عارٌ عليْكَ إذا فعلْتَ عظيمُ[1]

ـ عدة الدعاة القائمين على هذه المرحلة:

أولاً: التميز الإيماني والتفوق الروحي:

إن التميز في مجال الإيمان عقيدة صحيحة، ومعرفة جازمة، وتأثيراً قوياً يعد ـ بلا نزاع ـ أهم المقومات وأولى الأولويات بالنسبة للداعية، فعلى الداعية أن يكون عظيم الإيمان بالله، شديد الخوف منه، صادق التوكل عليه، دائم المراقبة له، كثير الإنابة إليه، لسانه رطب بذكر الله، وعقله مفكر في ملكوت الله، وقلبه مستحضر للقاء الله، مجتهداً في الطاعات، مسابقاً إلى الخيرات، صواماً بالنهار قوّاماً بالليل، مع تحري الإخلاص التام، وحسن الظن بالله وهذا هو عنوان الفلاح، وسمت الصلاح، ومفتاح النجاح، إذ هو تحقيق لمعنى العبودية الخالصة لله وهي التي تجلب التوفيق من الله فإذا بالداعية مسدد، إن عمل أجاد، وإن حكم أصاب، وإن تكلم أفاد[2].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به، وألا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفاً ورجاة. وفيه أيضاً أنه عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حياً وميتاً، مطيعاً وعاصياً، معافى ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح، وفيه أيضاً أن مالي ونفسي ملك لك فإن العبد وما يملك لسيده، وفيه أيضاً أنك أنت الذي مننت علي بكل ما أنا فيه من نعمة فذلك كله من إنعامك على عبدك، وفيه أيضاً أني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده وإني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن صح له شهود ذلك فقد قال: «إني عبدك حقيقة»[3].

---

(1) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص 97.
(2) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 34.
(3) الفوائد، ص 34، 35.

«ولا يتصور للداعية نجاح وتوفيق، أو تمييز وقبول دون أن يكون حظه من الإيمان عظيماً، إذ كيف تدعو النَّاس إلى أحد وصلاتك به واهية ومعرفتك به قليلة»[1].

وهذه الغاية العظمى تتصل أكثر شيء بأعمال القلوب التي تخفى على النَّاس ولا يعلمها إلا علام الغيوب، إلا أن آثار ذلك تظهر بوضوح في الأقوال والأفعال فإن «عكوف القلب على الله تعالى وجمعه عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيعده بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس، ولا ما يفرح به سواه»[2]. كل ذلك ينعكس على الداعية فتظهر على شخصيته آثار الإيمان الصحيح المتحرك، ومن أبرزها:

1 ـ التحرر من عبودية غير الله:

الإيمان قوة عظمى، يستعلي بها المؤمن على كل قوى الأرض، وكل شهوات الدنيا، ويصبح حراً لا سلطان لأحد عليه إلا لله، فلا يخاف إلا الله، ولا يذل إلا لله، ولا يطلب إلا من الله ولا يأمل إلا من الله، ولا يتوكل إلا على الله، وللإيمان تأثير كبير في أعظم أمرين يسيطران على حياة البشر وهما: الخوف على الرزق، والخوف على الحياة.

أما الأول: فلا يخفى كم أذل الحرص أعناق الرجال، وكم يشغل النَّاس حب المال، وكم باع أناس مبادئهم، وخانوا أمتهم وتنكروا لماضيهم لما ذهب الذهب بأبصارهم وسبى قلوبهم، أما المؤمن فحقائق الإيمان تملأ قلبه فلا يتأثر بشيء من هذا لأن في قلبه قول الحق جلّ وعلا: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22].

ولأنه يعلم من بيده الرزق: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ [العنكبوت: 17]. وأنه لا يملك أحد من البشر من ذلك شيئاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: 17]. وفوق ذلك يعلم حقيقة الرزق في الدنيا وقيمته المحدودة ويرتبط بقوله: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: 131].

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: 54].

---

(1) مع الله، لمحمد الغزالي، ص 188.
(2) زاد المعاد (2/ 87).

وحديث المصطفى ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء**»[1].

ومن هذه المنطلقات الإيمانية قال الشافعي رحمه الله:

أنا إنْ عشتُ لستُ أعدمُ قوتاً ... وإذا متُّ لستُ أعدِمُ قبرا

همتي همةُ الملوكِ ونفسي ... نفسُ حرٍّ ترى المذلةَ قهرا[2]

وأمّا الثاني: فيقين المؤمن أن الموت والحياة بيد الله، وأنه لا ينجي حذر من قدر، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وأن الموت ليس بالإقدام وأن السلامة ليست بالإحجام كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78]. ومن هنا يتميز المؤمن عن غيره، فبينما ترتجف القلوب وتنكب الدموع، وتعلو التوسلات، وتقدَّم التنازلات، حرصاً على الحياة، نجد المؤمن كالطود الشامخ يهتف مع خبيب بن عدي قائلاً:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ويتذكر قول عليّ بن أبي طالب:

أي يومي من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قُدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحذر[3]

ولا ينسى خبر سحرة فرعون لما آمنوا وهددوا بالموت هتفوا قائلين: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: 72].

2 ـ الخشية من الله:

وهي من أعظم آثار الإيمان وأبرز أوصاف المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: 49].

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39]، وقدوتهم في ذلك النبيّ ﷺ حيث يقول: «**إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**»[4].

---

(1) الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، حديث رقم 2320.
(2) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 36.
(3) انظر: المصدر السابق، ص 37.
(4) البخاري، كتاب النكاح، (الفتح 9/ 104).

«والخشية أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة»[1]. وعندما تعمر الخشية والخوف قلب الداعية المؤمن يتميز عن الغافلين والعابثين؛ لأن الخوف يحول بين صاحبه وبين محارم الله. قال إبراهيم بن سفيان: «إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها»[2].

وقال الفضيل بن عياض: «من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد»[3] وهذه الخشية دافعة للطاعة «وما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله»[4] والداعية له رتبة عليا من الإيمان «تجعل خشيته لله أسرع إلى فؤاده من أي رهبة تخامر نفسه أمام ذي سلطان»[5]. والخشية أساس مراقبة الله ترقى بالمؤمن إلى درجة الإحسان وأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه[6].

3 ـ حسن الصلة بالله:

والمقصود بها إقامة الفرائض، والاستكثار من النوافل، والاشتغال بالأذكار، والمداومة على الاستغفار وكثرة التلاوة القرآنية، والحرص على المناجاة الربانية، وغير ذلك من القربات والطاعات، لأن العبادة زاد يتقوى به الداعية، فالصلاة صلة بينه وبين مولاه، ولا مناص من تميزه في حرصه عليها، وتبكيره إليها، وخشوعه فيها، وتطويله لها، وشهودها مع الجماعة وله في ذلك قدوات سالفة، فسعيد بن المسيب ما فاتته الصلاة في جماعة أربعين سنة[7].

والربيع بن خثيم كان يقاد إلى الصلاة وبه الفالج، فلما روجع في ذلك قال: «إني أسمع حي على الصلاة فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبواً»[8]، ولست أدري كيف يكون داعية من يتخلف عن الصلوات في الجماعات سيما في الفجر والعصر والعشاء مع ما ورد في أدائها خصوصاً من تعظيم الأجر، وما جاء في فواتهما من التحذير من الإثم والوزر، وقد ترخص كثيرون في ذلك فلا يهمهم التبكير، ولا يعنيهم إدراك التكبير، ولست أدري ما يقول هؤلاء

(1) تهذيب مدارج السالكين، ص 269.
(2) المصدر نفسه، ص 270.
(3) نزهة الفضلاء (2/ 661).
(4) المصدر نفسه (1/ 513).
(5) مع الله، ص 19.
(6) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 39.
(7) نزهة الفضلاء (1/ 370).
(8) المصدر نفسه (1/ 381).

إذا سمعوا مقالة إبراهيم بن زيد التيمي: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه»[1] وبماذا يعلقون إذا علموا أن سعيد بن عبد العزيز التنوخي «كان إذا فاتته صلاة الجماعة بكى»[2].

والحقيقة أن الأمر في هذا يطول والتفريط فيه من بعض الدعاة كثير وخطير، ونصوص الكتاب والسُّنَّة أشهر من أن تذكر.

والذكر عظيم المنزلة فهو «منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منه القلوب»[3]، والذكر هو العبادة المطلوبة بلا حد يُنتهى إليه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41] وبلا وقت تختص به ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: 130]. وبلا حال تستثنى منه ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191].

والذاكرون هم السابقون في رياض الجنة يرتعون وبوصية المصطفى ﷺ يعملون، وبمباهاة الملائكة يسعدون[4].

والاستغفار من أعظم الأذكار وكان المصطفى ﷺ يستغفر في اليوم والليلة سبعين مرة[5]. وأخبر أمته أن «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**»[6]، ولذا فلا بد للداعية من الأذكار ليحمي الله قلبه، ولابد له من الاستغفار ليمحو الله ذنبه.

وأعظم الذكر تلاوة القرآن التي هي من أقوى الصلات بالله التي يحتاجها الدعاة، ولها أثرها في واقع الدعوة والحياة «ومن الصلة بالله إعزاز كتاب الله وإدمان تلاوته وتدبر معانيه، وعقد مقارنة مستمرة بين المثل التي يحدو العالم إليها، والواقع الذي ثوى النَّاس فيه لتكون هذه المقارنة حافزاً على تذكير النَّاس بالحق، وقيادتهم إلى الله، وتأهيلهم. وقرب الداعية من

(1) نزهة الفضلاء (1/ 468).
(2) تهذيب مدارج السالكين، ص 463.
(3) المصدر نفسه.
(4) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 41، 42.
(5) البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبيّ ﷺ (2/ 178) رقم 1518.
(6) أبو داود، كتاب الصلاة، باب الاستغفار (2/ 178) رقم 1518.

كتاب الله يجب أن يكون متعة لروحه وسكناً لفؤاده وشعاعاً لعقله، ووقوداً لحركته ومرقاة لدرجته»[1]، والصلة بالقرآن موجبة للتميز كما قال ابن مسعود ﷺ : «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا النَّاس نائمون، وبنهاره إذا النَّاس مفطرون، وبحزنه إذا النَّاس يفرحون، وببكائه إذا النَّاس يضحكون، وبصمته إذا النَّاس يخوضون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً حكيماً حليماً سكيناً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون حافياً ولا غافلاً ولا سخاباً ولا صياحاً ولا حديداً»[2].

والخلاصة أن التميز الإيماني من أعظم أسباب نجاح الداعية، إذ ليس النجاح بفصاحة اللسان ولا قوة البرهان ولا كثرة الأعوان، بل هو مع ذلك وقبل ذلك بتوفيق الله الذي يخص به أولياءه، ولاشك «أن الدعاة الذين يكرسون أوقاتهم لله لدفع النَّاس إلى سبيله، لابد أن يكون شعورهم بالله أعمق، وارتباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم، ورقابتهم له أوضح»[3].

لقد قصّر بعض الدعاة والجماعات الإسلامية في العناية بهذا الجانب المهم بسبب تضخيم العناية بالجوانب الفكرية والسياسية وغيرها، والمطلوب التوازن والشمولية وإعطاء كل جانب حقه من الاهتمام.

ثانياً: الرصيد العلمي والزاد الثقافي:

وهذا أساس لا بد منه حتى يجد النَّاس عند الداعية إجابة للتساؤلات، وحلولاً للمشكلات، إضافة إلى ذلك فإنه العدَّة التي بها يعلّم النَّاس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه أيضاً يكون الداعية قادراً على الإقناع وتفنيد الشبهات، ومتقناً في العرض، ومبدعاً في التوعية والتوجيه[4]. «وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلاّ بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولابد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي[5]. والخوض في غمار الدعوة وميادينها يحتاج من الداعية إلى العلم وإلا ترتب على ذلك آثار وخيمة لأن «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح»[6].

(1) مع الله، ص 191.
(2) الفوائد، ص 192.
(3) مع الله، ص 190.
(4) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 45.
(5) مفتاح السعادة (1/ 154).
(6) المصدر نفسه (1/ 130).

وكما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : «العلم إمام العمل والعمل تابعه، وهذا ظاهر فإن القصد العمل، والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلاً وضلالاً واتباعاً للهوى»[1].

وطبيعة مهمة الداعي خطيرة، ونظرة النَّاس إليه واعتدادهم به، وأخذهم عنه يجعل أمر العلم «أشد ضرورة للداعي إلى الله لأن ما يقوم به من الدين منسوب إلى رب العالمين، فيجب أن يكون الداعي على بصيرة وعلم بما يدعو إليه، وبشرعية ما يقوله ويفعله ويتركه، فإذا فقد العلم المطلوب اللازم له كان جاهلاً بما يريده ووقع في الخبط والخلط، والقول على الله ورسوله بغير علم، فيكون ضرره أكثر من نفعه، وإفساده أكثر من إصلاحه وقد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف لجهله بما أحقه الشرع وأوجبه وبما منعه وحرّمه»[2].

ولابد للداعية أن يوقن أن «العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب»[3].

والآخذ بالعلم آخذ بالبداية الصحيحة إذ العلم مقدم على القول والعمل كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: 19].

وبالعلم يحوز الداعية الرفعة في الميزان الرباني وفق قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11]. والسعي في طلب العلم تحقيق للغاية التي أرادها الله ووجه إليها في قوله ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]. فقد جعل الله الأمة فرقتين «أوجب على إحداهما الجهاد في سبيله وعلى الأخرى التفقه في دينه، لئلا ينقطع جميعهم عن الجهاد فتندرس الشريعة، ولا يتوفروا على طلب العلم فتغلب الكفار على الملة، فحرس بيضة الإسلام بالمجاهدين، وحفظ شريعة الإيمان بالمتعلمين، وأمر بالرجوع إليهم في النوازل ومساءلتهم عن الحوادث فقال عز وجل : ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ النحل 43، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

وإذا سلك الداعية طريق العلم حظي بالخيرية الربانية الثابتة في حديث رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً من طرق الجنة**»[4].

---

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (28/ 135، 136).

(2) أصول الدعوة، للدكتور عبد الكريم زيدان، ص 135.

(3) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص 40.

(4) أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على العلم (4/ 57) رقم 3641.

وإذا نال الداعية حظاً وافياً من العلم واندرج في سلك طلبة العلم فإنه يكون في مجتمعه نبراساً يُهتدى به كما قال ابن القيم عن الفقهاء: «إنهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء بهم يُهتدى في الظلماء، حاجة النَّاس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء»[1].

وعندما يتحرك الداعية ناشراً علمه ساعياً بين النَّاس بالإصلاح ناعياً عليهم الغفلة والفساد فإنه يحظى بشرف الوصف الذي ذكره الإمام أحمد حين قال: «الحمد لله الذي جعل في كل فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله تعالى الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على النَّاس وما أقبح النَّاس عليهم»[2]، وأهل العلم والبصيرة من الدعاة شهد التاريخ أنهم «هم من اهتدى بهم الحائر، وسار بهم الواقف، وأقبل بهم المعرض، وكمل بهم الناقص، ورجع بهم الناكص، وتقوّى بهم الضعيف»[3].

ومن أهم العلوم التي يجب أن يهتم بها الدعاة علم القدوم على الآخرة الذي قل وجوده بين لنَّاس وبين طلاب العلم، والذي بدونه لا يعتبر العالم عالماً وإن حفظ الشروح والمتون والأحكام وملأ رأسه منها ورددها على لسانه؛ إن هذا العلم لب العلوم وغايته وكل مسلم محتاج إليه والعالم أشد حاجة إليه، والداعي أحوج من الجميع إليه، إن هذا العلم هو الذي فقهه الصحابة الكرام وأشربت به قلوبهم وتنورت به عقولهم فضنوا بوقتهم أن يذهب سدى من غير طاعة الله ودعوة إليه، فاجتهدوا في أمور الخير وسارعوا في الخيرات، وحرصوا على الطاعات وتسابقوا في الدرجات حتى جاءتهم آجالهم[4].

إن الداعية عندما يتصدر للوعظ والإرشاد والتربية والتعليم مطالب بقدر من العلم والثقافة التي تعينه على مهمته وتؤهله لها، والمهم من ذلك يتركز في جانبين:

أ ـ الجانب الشرعي:

لابد للداعية أن يعرف «أن أولى العلوم وأفضلها علم الدين؛ لأن النَّاس بمعرفته يرشدون

(1) إعلام الموقعين (1/ 9).
(2) انظر: أصول الدعوة، ص 328.
(3) مقومات الدعوة والداعية، ص 51، 52.
(4) انظر: أصول الدعوة، ص 328.

وبجهله يضلون»[1] وعلى الداعية أن يتعلم الحد الأدنى من العلوم الشرعية الأساسية، ومن أهمها ما يلي:

1 ـ علم العقيدة الإسلامية: أن يتعلم أصول العقيدة من كتاب معتمد مختصر على مذهب أهل السُّنَّة والجماعة ككتاب: «لمعة الاعتقاد» لابن قدامة، أو غيره.

2 ـ علم التفسير: أن يطلع على تفسير موجز موثوق يشتمل على معاني الكلمات وأسباب النزول والمعنى الإجمالي، ويفيد في ذلك بعض المصاحف المطبوع على هامشها أسباب النزول ومعاني الكلمات، ثم يجعل له زاداً في دراسة متأنية لتفسير بعض السور والأجزاء المكية والمدنية من كتاب معتمد متوسط مثل «تفسير ابن كثير».

3 ـ علم الحديث: أن يدرس كتاباً من كتب الحديث الجامعة المختصرة مثل «مختصر صحيح البخاري» أو «مختصر صحيح مسلم» ويمكن أن يطالع كتاباً من كتب الحديث العامة المصونة في جملتها من الأحاديث الضعيفة والمشتملة على أهم الأبواب التي يحتاج إليها في الإيمان والفضائل والآداب مثل كتاب «رياض الصالحين»، ويحسن أن يطلع على بعض كتب الحديث المختصة بموضوعات معينة ففي أحاديث الأحكام: «بلوغ المرام»، وفي الأذكار: «أذكار النووي»، وفي الشمائل: «شمائل الترمذي» ونحو ذلك.

4 ـ علم الفقه: أن يدرس مختصراً في فقه العبادات والمعاملات وقد يضيف ما يحتاجه من الأبواب على مذهب من المذاهب الأربعة المشتهرة ولا مانع من أن يهتم بفقه الحديث.

5 ـ علم السيرة والتاريخ: أن يدرس مختصراً في سيرة الرسول ﷺ مثل: «تهذيب سيرة ابن هشام» ومن الكتب المعاصرة النافعة: «الرحيق المختوم» للمباركفوري، وأن يطالع على الأقل تاريخ الخلفاء الراشدين.

6 ـ مفاتيح العلوم: أن يدرس مختصراً في أصول الفقه مثل: «الوجيز في أصول الفقه» د. عبد الكريم زيدان «تيسير مصطلح الحديث» للطحان، «مباحث في علوم القرآن» للقطان، «مقدمة شيخ الإسلام ابن تيمية» في أصول التفسير.

7 ـ علوم اللغة: أن يدرس مختصراً في النحو «كالآجرومية» أو «ملحمة الإعراب»، وكذلك في البلاغة والأدب يحتاج إلى دراسة موجزة في مثل كتاب «البلاغة الواضحة» لعلي الجارم[2].

---

(1) انظر: مقومات الدعوة والداعية ص 51 ـ 53.

(2) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 51 ـ 53.

وهذه العلوم الأساسية يحتاج الداعية فيها إلى إرشادات عامة أهمها:

1 ـ التدرج في كل علم من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأيسر إلى الأصعب، وليعلم «أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أساس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى»[1].

وهذا ابن خلدون يوضح لك الطريق فيقول: «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً»[2].

وقال ابن شهاب الزهري المحدث الإمام: «من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي»[3].

2 ـ الحرص على التلقي عن الشيوخ كل في فنه وألا يعتمد على الاطلاع المجرد وحده، فهذه العلوم ليست كالصحف والمجلات يُكتفى فيها بالقراءة والاطلاع، وكما قيل: «من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه»[4].

وصدق الشاعر حيث يقول:

يظنُّ الغمرُ أنَّ الكتبَ تهدي ... أخا جهلٍ لإدراكِ العلومِ
وما علمُ الجهولِ بأنَّ فيها ... مداركَ قد تَدُقُّ عنِ الفهيمِ
ومَنْ أخذَ العلومَ بغيرِ شيخٍ ... يَضِلُّ عنِ الصراطِ المستقيمِ
وكم مِنْ عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتُهُ منَ الفهمِ السقيمِ[5]

وكتب السلف وتراجم العلماء مليئة بأسماء شيوخهم، وسيرتهم مع من تلقوا عنهم، وكتب أهل العلم طافحة بآداب الطالب مع شيخه مما يدل على بدهية ذلك عندهم[6]:

---

(1) أدب الدنيا والدين، ص 55.
(2) مقدمة ابن خلدون، ص 533.
(3) جامع بيان العلم وفضله، ص 138.
(4) مقومات الداعية الناجح، ص 54.
(5) المصدر نفسه.
(6) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 55.

قال الشاطبي: «من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام»[1].

3 ـ الصبر والملازمة، وترك الانتقال من علم إلى علم قبل تمامه، ومن شيخ إلى شيخ قبل الاستفادة منه، ومن كتاب إلى كتاب قبل إحكامه، قال الزرنوجي: «ينبغي أن يثبت ويصبر على أستاذه، وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة، فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذي العلم»[2].

ب ـ الثقافة الإسلامية:

لا شك أن الداعية يحتاج بشكل ملح إلى الثقافة العامة وكذلك الثقافة المعاصرة:

«إن حركة الداعية حركة واسعة، وانتشاره كبير واتصالاته كثيرة وهو لاشك يلتقي أنواعاً كثيرة من البشر كل له مزاجه وثقافته واطلاعه، فلابد للداعية أن يشبع هذه الثقافات ويلم بشيء منها حتى يشارك من يخاطبه كل حسب ثقافته كمدخل من مداخل الدعوة»[3].

ولابد من الاعتراف بوجود الخلل في هذه الثقافة عند كثير من الدعاة فهناك عجز في المعرفة بالحاضر المعيش والواقع المعاصر، وهناك جهل بالآخرين نقع فيه بين التهويل والتهوين مع أن الآخرين يعرفون عنا كل شيء وقد كشفونا حتى النخاع، بل هناك جهل بأنفسنا فنحن إلى اليوم لا نعرف حقيقة مواطن القوة فينا ولا نقاط الضعف لدينا، وكثيراً ما نضخم الشيء الهين، وما نهون الشيء العظيم، سواء في إمكانياتنا أم في عيوبنا»[4]. إن من المهم بمكان أن يتمكن الداعية عند عرضه للإسلام من بيان محاسن الدين، ومقاصد الشريعة، ويفند مزاعم خصوم الإسلام وشبهاتهم، ويظهر الكمال في أنظمة الإسلام الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وأنها ترعى جميع المصالح وتسد أبواب الفساد، وأنها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان وأمثال هذه الموضوعات ومن المهم بمكان، أن يستوعب الداعية المذاهب الفكرية المعاصرة كالشيوعية والرأسمالية، والقومية والبعثية والماسونية وأن يبين عوارها وبطلانها وتعارضها مع العقيدة الإسلامية ودين الإسلام، وأن يكون على دراية بأساليب

(1) الموافقات للشاطبي (1/ 9).
(2) تعليم المتعلم للزرنوجي، ص 44.
(3) الدعوة قواعد وأصول، ص 71.
(4) أولويات الحركة الإسلامية، ص 12.

الأعداء وغزوهم الفكري، والدور العملي للصهيونية والماسونية ومخططاتهم وأساليبهم، والتنصير ومؤسساته وأدواره. وأن يطالع الكتب النافعة في هذا المجال مثل «الغارة على العالم الإسلامي» تأليف أ. ل. شاتليه، وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، وأساليب الغزو الفكري للدكتور علي جريشة ومحمد شريف وغيرها من الكتب.

إذا توفر للداعية رصيد علمي مناسب وزاد ثقافي جيد كان ذلك سبباً مهماً في نجاح الداعية في مرحلة التعريف.

ثالثاً: رجاحة العقل وقوة الحجة:

ن توفر الذهن الوقاد والعقل النير ميزة كبيرة يتحلى بها الداعية حتى يستطيع أن يرجح بين الآراء المختلفة ويحلل الأمور ويدلل على الصواب ويرتب الأولويات، ويختار الأوقات، وينتهز الفرص المناسبة، ويتخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات، والتكيف مع الأزمات، وربما يلتقي الداعية بأصناف من المدعوين يحتاج الداعية معهم إلى إقامة الحجة العقية ومن هؤلاء:

1 ـ الكافرون الذين لا يؤمنون بالكتاب والسُّنَّة.

2 ـ المعتدُّون بعقولهم المقدمون لها على النص النقلي.

3 ـ المخدوعون بالشبهات.

4 ـ المعاندون الذين يتبعون الباطل تبعاً لمصالحهم ويسعون إلى إضلال غيرهم.

5 ـ الواقعون تحت تأثير الأوضاع والأعراف الخاطئة حتى ألفوها ورأوها صواباً.

وهناك أساليب كثيرة مستنبطة من الكتاب والسُّنَّة في إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية وهي تعين الدعاة على التأثير في النَّاس وخصوصاً عند التفكر العميق والتأمل الهادئ.

ومن هذه الأساليب المهمة:

أ ـ أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين أحدهما: هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر: هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكر في كلا الأمرين وعاقبتهما للوصول ـ بعد المقارنة ـ إلى الحق والخير منهما[1]، ومن أمثلة ذلك:

(1) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 59، 60.

1 ـ قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109].

قال القرطبي: «وهذه الآية ضرب مثل لهم، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق، وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها، وفي هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه»[1].

2 ـ ومن الأمثلة النبوية التي تبين استخدام النبيّ ﷺ لأسلوب المقارنة قوله ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة**»[2].

قال النووي: «وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والعلم والأدب والنهي عن مجالسة أهل الشر والبدع ومن يغتاب النَّاس ويكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»[3].

ب ـ أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمة العقلية إلى الإقرار بالمطلوب الذي هو مضمون الدعوة ومن أمثلة ذلك:

1 ـ قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ [الشعراء: 69 ـ 81] وهنا ستكون الإجابات بالنفي فعقولهم تمنعهم أن يقولوا إن أصنامهم تسمع دعاءهم أو تجيب رجاءهم، وهذا يؤدي إلى عدم جدوى هذه الأصنام وبالتالي

(1) تفسير القرطبي (8/ 265).
(2) مسلم، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين (النووي 6/ 178).
(3) المصدر السابق (6/ 178).

الاستسلام العقلي بوجود وألوهية الخالق الذي جاء في هذه الآيات وصف أفعاله سبحانه وتعالى[1].

2 ـ ومن الأمثلة الحديثية: أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال مستنكراً ومسترشداً: يا رسول الله ولد لي غلام أسود، فقال: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم، قال: «**ما ألوانها؟**» قال: حُمر، قال: «**هل فيها من أورق**»[2]؟ قال: نعم، قال: «**فأنى ذلك؟**» قال: لعله نزعة عرق، قال: «**فلعل ابنك نزعة عرق**»[3].

فهذا الرجل جاء سائلاً مستفتياً عما وقع له من الريبة، فلما ضرب له المثل أذعن، وقال ابن العربي: «فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظر»[4].

ج ـ أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قوي في إفحام المعاندين أصحاب الغرور والصلف بإمرار أقوالهم وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة منعاً للجدل والنزاع، خلوصاً إلى حجة قاطعة تدمغهم، وتبطل بها حجتهم تلك فتبطل الأولى بالتبع.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى في قصة إبراهيم مع النمرود: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 258].

وقد أحسن صاحب الظلال في توضيح هذا الأسلوب حيث قال: «عرف إبراهيم بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد... وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية، ويراه مصدر الحكم والتشريع وغيره، قال: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فهو من ثم الذي يحكم ويشرع، ثم قال تعليقاً على قوله تعالى ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل معه في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تلك الحقيقة الهائلة، حقيقة منح الحياة وسلبها، هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئاً، وعندئذ عدل عن هذه السُّنَّة الكونية الحقيقية إلى سنة

(1) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 62.
(2) أورق: أي أسمر (النهاية في غريب الحديث، 5/ 175).
(3) البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد (الفتح 9/ 442).
(4) فتح الباري (9/ 444).

أخرى ظاهرة مرئية، وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الإلهية في قوله﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ إلى طريقة التحدي، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله»[1].

وعلق بمثل قوله السعدي في تفسيره فقال: «فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً ربما راج على الهمج والرعاع قال إبراهيم ملزماً بتصديق قوله: إن كان كما يزعم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ...﴾ الآية فأتى (أي إبراهيم) بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه»[2].

ولا ريب أن الداعية مطالب بتفهم هذه الأساليب والإفادة منها ليكتسب فطنة تساعده على تقرير المسائل وإقامة الحجة وسرعة البديهة.

ولقد كان لأئمة الدعاة أقوال ومواقف دلت على رجاحة عقولهم وقوة حجتهم: فهذا القاضي أبو بكر الباقلاني سأله بعض النصارى بحضرة ملكهم فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت من الإفك؟ فقال الباقلاني على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء، مريم وعائشة فبرأهما الله ﷻ وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج[3].

فكان هذا الجواب في غاية الروعة والإفحام؛ لأن ذلك الخبيث أراد التعريض والإحراج بقصة حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة ﵂، فأجاب الباقلاني بأن هذه فرية برأها الله منها ولكنه قرن ذلك بذكر مريم؛ ليشير إلى أن براءة عائشة عقلاً أولى، لأنه لو تطرق إلى العقل احتمال الريبة فهو في حق مريم أعظم، فإن قبلتم أيها النصارى براءتها فليزمكم قبول براءة عائشة من باب أولى[4].

رابعاً: رحابة الصدر وسماحة النفس:

إن الداعية الرباني في العادة يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليتوعب النَّاس ويستميلهم للخير والحق «فالنَّاس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب

(1) في ظلال القرآن (1/ 298).
(2) تفسير السعدي (1/ 320).
(3) البداية والنهاية (9/ 135).
(4) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص 70.

كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا»[1].

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع النَّاس «ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أغراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة والرحيبة»[2].

إن هذه الأخلاق مهمة في تكوين الداعية، يحتاج أن يجتهد في اكتسابها لأنها وقود محرك له في دعوته كما أنها ترفع كفاءة القبول، وتكبح جماح الانفعالات النفسية ذات الآثار السلبية، وتتجلى هذه الأخلاق في عدد من الصفات توضحها وتبين أثرها ومن أهمها:

أ ـ الرحمة والشفقة:

«إن الداعي لا بد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على النَّاس، وإرادة الخير لهم والنصح لهم، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، لأن في هذه الدعوة نجاتهم من النار وفوزهم برضوان الله تعالى، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وأعظم ما يحبه لنفسه الإيمان والهدى فهو يحب ذلك إليهم»[3].

وهذا الشعور الغامر بالشفقة على النَّاس يبعث في النفس الحزن والأسى على حال المعرضين والعاصين، ويتولد إثر ذلك قوة نفسية دافعة لاستنقاذهم من الخطر المحدق بهم والهلاك القادمين إليه، وما أبلغ وأدق النص القرآني في بيان هذه الصفة عند الرسول الكريم ﷺ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

تأمل هذه الآية فإنه: «من فرط شفقته ﷺ داخله الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوّن الله ـ سبحانه ـ عليه الحال، بما يشبه العتاب في الظاهر كأنه قال له: لم كل هذا؟ ليس في امتناعهم ـ في عدِّنا ـ أثر، ولا في الدين من ذلك ضرر»[4].

فالرحمة ـ كما ترى ـ باعث دافع ومحرك للدعوة استنقاذاً للناس من الهلاك، وهي في

(1) في ظلال القرآن (1/ 500 ـ 501).
(2) في ظلال القرآن (1/ 500، 501).
(3) أصول الدعوة، ص 343، 344.
(4) لطائف الإشارات للقشيري (1/ 377).

الوقت نفسه عامل استمرار واطراد وتوسيع لدائرة الاستيعاب والتأثير رغم الصد والإعراض[1].

ب ـ الحلم والأناة:

إن الحلم: «فضيلة خلقية نافعة.. تقع في قمة عالية دونها منحدرات، فهو أناة حكيمة بين التسرع والإهمال أو التواني، وضبط للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانة بين الطيش وجمود الإحساس»[2].

والأناة عند الداعية إلى الله تعالى «تسمح له بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه للكثير من الأخطاء والإخفاق، وتعرضه للتعثر والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، وبخلاف التباطؤ والكسل فهو أيضاً يعرض للتخلف والحرمان من تحقيق النتائج التي يرجوها[3]، وقد امتدح النبيّ ﷺ ـ الأشج فقال: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**»[4].

ومن الأمثلة من سيرة النبيّ ﷺ ما رواه أنس بن مالك حيث قال: «جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره النَّاس، فنهاهم النبيّ ﷺ، فلما قضى بوله أمر النبيّ ﷺ بذنوب من ماء أهريق عليه»[5].

لقد كانت مواقف النبيّ ﷺ ـ التي تبين حلمه كثيرة جداً.

جـ ـ العفو والصفح:

ومن مستلزمات الحلم: كظم الغيظ وضبط الغضب، ثم الأناة التي فيها تبصر بالأمور وتأن في التصرف، مع الاستناد للرحمة بالجاهلين كل ذلك يثمر العفو والصفح؛ لأن «القلوب الكبيرة قلما تستجيشها دوافع القسوة فهي أبداً إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحفيظة والأضغان»[6] وما دام الداعي المسلم ينظر إلى من يدعوهم نظرة الرحمة والشفقة عليهم فإنه يعفو ويصفح عنهم في حق نفسه، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ

(1) الأخلاق الإسلامية، لعبد الرحمن حبنكة (2/ 325).
(2) المصدر نفسه (2/ 325).
(3) المصدر نفسه (2/ 353).
(4) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (1/ 48).
(5) البخاري، كتاب الطهارة، باب صب الماء على البول في المسجد (الفتح 1/ 423).
(6) خلق المسلم، ص 204.

﴿ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]. فإذا كان هذا هو شأن الداعي المسلم بالنسبة لمن يدعوهم ويحتمل صدور الأذى منهم فإن عفو الداعي وصفحه عن أصحابه أوسع، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159].

وعندما وقعت حادثة الإفك، كان وقعها على آل أبي بكر شديداً، فلما نزلت البراءة حلف أبو بكر ﷺ ألا ينفق على مسطح بن أثاثة فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: 22]. فصفح الصديق وعفى واستمر في نفقته على مسطح.

إن رحابة الصدر وسماحة النفس تتضمن الرحمة التي تدعو إلى الحلم الذي يقود إلى العفو فيكون من وراء ذلك التأثير التلقائي؛ لأن الإنسان يتأثر بالإحسان: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

وهذا أمر مشاهد حيث نرى أن من كان سمح النفس يستطيع «أن يظفر بأكبر قسط من محبة النَّاس له، وثقة النَّاس به؛ لأنه يعاملهم بالسماحة والبشر ولين الجانب، والتغاضي عن السيئات والنقائص، فإذا دعاه الواجب إلى تقديم النصح كان في نصحه رقيقاً ليناً، سمحاً، يسر بالنصيحة، ولا يريد الفضيحة، يسد الثغرات، ولا ينشر الزلات والعثرات»[1].

هذه بعض العدة التي لابد منها للدعاة الذين يتصدرون النَّاس لدعوتهم إلى الإسلام.

المراعاة والتدرج في الإسلام:

إن المراعاة والتدرج لازمان للتغيير وحصول الاستجابة؛ لأن تغيير النفوس وإزاحتها عن مألوفاتها، ونقلها من ميولها أمر ليس سهلاً، كما أن تغيير الأعراف التي تجذرت في النفوس، واستقرت في العقول وتواطأ النَّاس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجَّه، ولذلك لابد للدعاة من مراعاة الطبائع، والأفهام، والمقاصد والنيات، والأحوال الخاصة، والأعراف والعوائد العامة، والأولويات والمصالح والمفاسد والأوقات عندما يتصدرون دعوة النَّاس وتعريفهم بالإسلام.

إن التدرج سنة ربانية من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهو من السنن الهامة التي يجب على الأمة أفراد وجماعات أن تراعيها وهي تعمل للتمكين.

---

(1) الأخلاق الإسلامية (2/ 443).

ومراعاة سنة التدرج في العمل للتمكين يعني أن تتدرج الأمة في عملها للتمكين من السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب ومن الهدف القريب إلى الهدف البعيد، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية[1]... وهكذا.

فلقد بدأت الدعوة الإسلامية في زمن النبيّ ﷺ متدرجة، تسير بالنَّاس سيراً دقيقاً، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس ثم مرحلة المواجهة والمقارنة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز وما كان يمكن كذلك أن يقدم واحد منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[2]. واعتبار هذه السُّنَّة في غاية الأهمية «ذلك أن بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية يحسبون أن التمكين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون أن يغيروا الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في طرفة عين، دون نظر في العواقب، ودون فهم للظروف والملابسات المحيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقدمات، أو للأساليب والوسائل»[3].

وقد وجه الله ـ تعالى ـ أنظارنا إلى هذه السُّنَّة في أكثر من موقع، فالله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، يعلمها سبحانه ويعلم مقدارها، وكان ـ جل شأنه ـ قادراً على خلقها في أقل من لمح البصر.

وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تندرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها ونضجها وفق سنة الله ـ تعالى ـ الحكيمة.

وسنة التدرج ثابتة في التشريع الإسلاميّ بسورة بينة ملموسة، وهذا من تيسير الإسلام على البشر، أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم إيجاباً وتحريماً، فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة التي استقرت عليها[4].

ولقد أشارت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى سنة التدرج في التشريع ونزول القرآن فقالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سور من المفَصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب النَّاس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً»[5].

---

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص 226.
(2) منهج أهل السُّنَّة والجماعة في قضية التغيير، ص 68، 69 بتصرف.
(3) آفات على الطريق، للدكتور السيد محمد نوح (1/ 27).
(4) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 127.
(5) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن (الفتح 9/ 39) رقم 4993.

وأوضح مثال معروف في هذه القضية هو التدرج في تحريم الخمر: فلقد كانت متغلغلة في نفوس النَّاس بصورة كبيرة، فكان من الحكمة أن يُفطموا عنها بطريقة تدريجية[1]، وكان القضاء على الرق خاضع لسنة التدرج.

يقول الدكتور القرضاوي: «ولعل رعاية الإسلام للتدرج هي التي جعلته لا يُقدم على إلغاء نظام الرق الذي كان نظاماً سائداً في العالم كله عند ظهور الإسلام، وكان محاولة إلغائه تؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية فكانت الحكمة في تضييق روافده بل ردمها كلها، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج»[2].

ويقول أبو الأعلى المودودي: «إننا إذا درسنا القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف، وبأي تدرج وانسجام تمَّ التغيير الإسلاميّ في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبيّ ﷺ، فلقد كانت الأمور تسير رويداً رويداً حسب مجراها الطبيعي حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين»[3].

إن الأمة الإسلامية التي تتطلع اليوم إلى تمكين الله تعالى لها لابد أن تراعي في عملها سنة التدرج، فما هدم في أعوام لا يمكن أن يبنى في أيام فعليها أن تتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، فتصبر على البذرة حتى تنبت، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهر، وعلى الزهرة حتى تثمر، وعلى الثمرة حتى تنضج، وتؤتي أكلها بإذن ربها[4].

وينبغي للدعاة العاملين اليوم للإسلام أن: (يراعوا في عملهم سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف، آخذين في الاعتبار سمو الهدف ومبلغ الإمكانات وكثرة المعوقات فلا ينبغي أن يستعجل الشيء قبل أن يبلغ الأجل المقدور لمثله، فإن الزرع إذا حُصد قبل إبانه، والثمر إذا قطف قبل أوانه لا ينتفع به النفع المرجو. بل قد يضر ولا ينفع، فإذا كان النبات لا يؤتى أكله إلا بعد أشهر أو سنة وبعض الشجر لا يثمر قبل سنوات عدة فإن بعض الأعمال الكبيرة لا تقطف ثمارها إلا بعد عقود من السنين، وكلما كان العمل عظيماً، وقاعدته متسعة كانت ثمرته أبطأ.

---

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 228.
(2) الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي، ص 166 وما بعدها.
(3) التمكين للأمة الإسلامية، ص 229.
(4) انظر: جيل النصر المنشود، للقرضاوي، ص 23.

وقد يبدأ جيل عملاً تأسيـــياً ذا شأن فلا يستفيد منه الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذلك، ولا ضير في ذلك ما دام كل شيء يسير في خطه المعلوم وطريقه المرسوم[1]. نعم فالأقدار طويلة الأنفاس، والصراع بين الحق والباطل لا تنكشف عقباه في سنة أو سنتين ولا في جولة أو جولتين إنه قد يستوعب السنين والقرون[2].. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47].

إن استيعاب سنة التدرج يعين الدعاة على التعامل الصحيح مع النَّاس، ولابد للدعاة الذين يعرفون النَّاس بالإسلام أن تكون لهم قدرة على التخطيط والتنظيم وحسن الإدارة، ولا يخفى أن هذه الأمور المذكورة من صميم كل مرحلة من مراحل التمكين بل هي من صميم أي عمل يراد له أن يحقق أهدافه، وأن يصل إلى غايته.

إن مرحلة التعريف تحتاج من الدعاة أن يهتموا بالتخطيط والتنظيم وحسن الإدارة.

فبالتخطيط: يمكن أن يستفاد من الموارد المادية والمعنوية والبشرية، على أفضل وجه ممكن، وبأقل تكاليف ممكنة، وفي الوقت المناسب.

وبالتنظيم: يمكن تحديد الواجبات والاختصاصات بين الأفراد ويمكن تحديد الأوقات التي تؤدى فيها الأعمال، بغية الوصول إلى الأهداف التي حددت من ذي قبل، وهو عمل يجب أن يمارسه الدعاة إلى الله بل يتمرسوا به، ويجيدوه؛ لأنه لا ينجح عمل بدون ذلك.

وبحسن الإدارة: يمكن إخراج التخطيط والتنظيم إلى حيز الوجود للعمل والتنفيذ، وتحدد الطاقات وتوظف مهماتها في العمل، وفق ما تقتضيه الخطة وما يتطلبه النظام، ويمكن تأمين الموارد المالية اللازمة في هذه المرحلة، بحيث تكون موارد ثابتة يمكن على ضوء ثباتها هذا أن توضع ميزانية للعمل، وأن يخضع لجدولية مالية وزمانية، ويمكن تنسيق جهود الأفراد أو المجموعات المشاركة في العمل، بحيث تغطي احتياجات العمل في هذه المرحلة، وتحقق أهدافه مع تحديد الجهد المطلوب من كل فرد أو مجموعة أياً كان هذا الجهد، وبحسن الإدارة يمكن أن يقوم العمل في كل مرحلة من مراحله، والاستفادة من هذا التقويم للوصول إلى الأحسن، وتقويم الأداء في الزمان والمكان، وتقويم النتائج التي حققها العمل، وتقويم الأفراد والمجموعات.

إن تقويم العمل وفق إدارة محكمة ينتج عنه تجويد العمل على قدر المستطاع، والمحافظة

---

(1) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص 106، 107.

(2) علل وأدوية، للغزالي، ص 37.

عليه من الانحراف عن أهدافه، والمحافظة على الاستمرارية، والمحافظة على الانضباط.

ولابد من الإشارة إلى موضوع مهم، ألا وهو أن العمل الدعوي في مكان قد يحتاج إلى خطة وتنظيم وإدارة، تختلف عن احتياجه إليها في مكان آخر.

وهذا حق، وهو أمر تتطلب فيه المرونة، وسعة الأفق، وعمق النظر إلى الأمور، لكن بغض النظر عن هذا الاختلاف، فليست العبرة أبداً بنوعية الإعداد، هرمياً كان أو رأسياً، أو رئاسياً أو استشارياً، أو غير ذلك، وإنما العبرة بضرورة ممارسة التنظيم للعمل، وبضرورة اختيار النوع الملائم للناس والبيئات، التي يطبق فيها أي نوع من أنواع التنظيم، كل ذلك ينظر إليه بمنظار الاحتياج من جانب، وبمنظار القدرة على تحقيق الأهداف من جانب آخر، ولا بأس أبداً بأي نوع من أنواع التنظيم التي ذكرنا أو سواها مما يصل إليه أذهان الدعاة إلى الله، ما دام هذا التنظيم لا ينطوي على شيء مما حرّم الله[1].

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله، للدكتور علي عبد الحليم (1/ 295 ـ 302).

المبحث الثاني

مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة

إن رسل الله الكرام ـ عليهم أفضل الصلوات والسلام ـ عندما بلغوا رسالات الله إلى أقوامهم، اختاروا من النَّاس من استجاب لدعوتهم وغرسوا في نفوسهم المعاني الإيمانية والأخلاق الربانية حتى يستطيعوا أن يحملوا معهم دعوة الله إلى النَّاس، فهذا رسول اللهموسى قام بهذه المهمة الشاقة، وذاك رسول الله عيسى الذي اختار أنصاره الحواريين الذين حملوا دعوته ورسالته من بعده وإن كان بعضهم انحرف عن المنهج الرباني الصحيح، ومن سيرة النبيّ ﷺ نرى أن هذه المرحلة واضحة المعالم في اختيار العناصر التي لها استعداد لتحمل تكاليف ومشاق ومصاعب الدعوة إلى الله.

وقد اهتم كثير من الدعاة إلى الله بهذه المرحلة وأعطوها اهتماماً خاصاً على مر العصور، وكر الدهور، ولا زال الـ هتمون بأمر الدعوة والذين يسعون لتطبيق شرع الله تعالى يعطون هذه المرحلة أوقاتهم وجهدهم، ولقد أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الاهتمام بالإعداد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

إن الإعداد في الآية الكريمة كلمة عامة تبدأ بالإعداد النفسي، وتنتهي بكل أنواع الإعداد المادية التي قد تحتاج إليها المعركة، والمسلم في هذه المرحلة بالذات عليه أن يعد نفسه للقاء أعداء الله، فيأخذ نفسه بكل أسباب القوة، ويحول بينه وبين أي سبب من أسباب الضعف، ويعيش منتظراً ذلك اليوم الذي يجاهد فيه في سبيل الله، ويقاتل أعداءه، ويسعى لإزالة الحواجز التي تمنع دخول النَّاس في الإسلام، وتمنع تحكيم شرع الرحمن[1].

إن مرحلة اختيار العناصر اللازمة لتحمل الدعوة وتربيتهم على الكتاب والسُّنَّة من أهم

---

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله (1/ 447).

المراحل في تمكين دين الله، كما أن أهدافها أكثر دقة من أهداف المرحلة التي قبلها.

أولاً: أهم أهداف هذه المرحلة:

الهدف الأول: الاصطفاء:

وهو الاختيار والانتقاء للعناصر التي أنهت مرحلة التعريف بنجاح حتى يتأهلوا لحمل أعباء وتكاليف الجهاد في مرحلة المغالبة والشروع لهيمنة الإسلام من خلال دولة محكمة[1]، وهذا الاصطفاء له معايير أهمها:

1 ـ **القدرة الروحية**: ويكون لدى الشخص المختار استعداد في هذه المرحلة من الناحية الروحية إذا توفرت فيه بعض الصفات، من أهمها: صفاء الروح، الشعور بمراقبة الله، أن يظهر حبه لله في سلوكه، وكذلك ارتباطه الوثيق بالله.

2 ـ **القدرة العقلية**: وأهم الصفات التي تؤهل الشخص من الناحية العقلية: الذكاء الذي يساعده على العلم والتحصيل، ونبذ المسلمات القائمة على الظنون والأوهام: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: 36]، وأن يتصف في الحكم على النَّاس والأشياء بالتأني والتثبت في كل الأمور؛ لأن التسرع يوقع في الخطأ من جانب ويضيع كثيراً من الفرص للتعرف الحقيقي على النَّاس من جانب آخر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]، وأن يتصف بعمق النظر، وقدرته على التدبر واستنباط الحكم الكامنة في المخلوقات؛ لأن ذلك ينضج الفكر ويزيد الإيمان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 85].

3 ـ **القوة البدنية**: وذلك أن هذه المرحلة إعداد لمرحلة الجهاد، فليس بأهل لها، إلا رجل قوي البدن سليم الحواس، خال من الأمراض والعاهات، ومن كان قادراً على أن يأخذ نفسه وبدنه بأسباب القوة، ويباعد بين نفسه وبدنه وبين أسباب الضعف فذلك شخص مطلوب.

4 ـ **القدرة الحركية**: وتتحقق القدرة الحركية في الشخص إذا توفرت فيه صفات نذكر منها: الرغبة في الاختلاط بالنَّاس، وعقد الصلات بهم، والقدرة على جذب النَّاس إليه،

(1) فقه الدعوة إلى الله (1/ 421).

والقدرة على التأثير في النَّاس، وتصنيفهم، وتكون هذه الصفات من مقومات الشخصية المختارة.

5 ـ **القدرة الإنتاجية**: يكون قد استقطب وضم للصف الإسلاميّ آخر أو آخرين، لصفوف العمل الإسلاميّ عموماً، أو إلى صفوف مرحلة الدعوة والتبليغ، وأن يتصف بالإيجابية الفعالة القادرة على العمل، وأن يكون متحمساً للعمل لا يفتر عنه، وأن يكون محسناً في العمل الذي يسند إليه وأن يكون ذا علاقة جيدة بالنَّاس، وأن يكون قد فقه تماماً معنى كونه داعية إلى الله، ومن لم تتوفر له هذه الصفات، أو تلك الشروط، وفق تلك المعايير التي ذكرنا يكون له موقع آخر في العمل الإسلاميّ أكثر انسجاماً، ملاءمة لطاقته وقدراته، وفائدة للعمل؛ لأن من الأمور التي تهلك الأعمال توسيدها إلى غير أهلها.

الهدف الثاني: التوظيف:

أي تحديد العمل للفرد، وتقديره في حدود إمكانات الفرد وطاقته ويحدد له الزمن المناسب لأداء العمل وإسناد العمل المناسب للفرد المناسب يستوجب على من يشرف على العمل أن يكون على علم ووعي وإدراك لما يلي:

1 ـ تحديد الهدف لكل عمل من الأعمال.

2 ـ تحديد الوسائل التي تكفل للعمل النجاح.

3 ـ تحديد الفرد والأفراد الملائمين للعمل.

4 ـ تحديد الإطار الزمني للعمل.

الهدف الثالث: الإعداد والتربية:

ونعني بهذا الهدف تهيئة الأفراد وتجهيزهم وتنمية قواهم الجسدية والخلقية والعقلية؛ ليكونوا أقوياء قادرين على حمل أعباء الجهاد في سبيل الله، ولذلك تعتبر مرحلة الإعداد والتربية من أهم مراحل الدعوة إلى الله، لأنها تكوّن أفراداً متكاملي البناء، وحسبهم أنهم قادرون على حمل أعباء الجهاد الذي كما هو معروف سنام الإسلام، وأعلى منزلة بين منازله.

الهدف الرابع: الانضباط:

وذلك بالوصول بالأفراد إلى الانضباط وحفظهم بالحزم حفظاً جيداً، وإحكام إعدادهم وتكوينهم والقيام على أمرهم خير قيام.

إن حياة المسلم العادي منضبطة في كل شيء وفق القوانين التي جاء بها الإسلام، فمن باب أولى الذين يعدون لحمل تكاليف الجهاد فالمسلم منضبط وفق الشرع في العقيدة والفكر، وفي العبادة، وفي الخلق والسلوك وفي المعاملات كلها، وفي الكلام والصمت وفي الزي والمآكل والمشرب والمنكح، وفي النوم واليقظة، وفي الحقوق والواجبات، وفي محاسبة النفس وفي الدعوة إلى الله والعمل من أجل الإسلام، وفي الالتزام بوعده وموعده، وفي لانتماء والاعتزاز بأنه مسلم.

وليس المسلمون في ذلك سواء فمنهم من ينضبط وفق هذه المعايير، ومنهم من يقصر في بعضها، ومنهم من يلبس عليه الشيطان أو الهوى أمره فلا ينضبط ولقد كان من حكمة الله سبحانه ورحمته بالنّاس، أن جعل لعدم الانضباط عقوبات مقدرة «حدوداً» ليلتزم النّاس بأدب الإسلام وخلقه، ومنهجه، ونظامه.

إن مرحلة الإعداد والتربية من أهدافها الأصيلة، أن يتربى المسلم على الانضباط في كل شيء وفق المعايير والقوانين التي شرعها الله سبحانه وتعالى ليحقق الآخذ بها سعادة الدنيا والآخرة.

ومن أهم الوسائل لتحقيق هذه الأهداف أن يتعهد الأفراد المستهدفون في هذه المرحلة من قبل مشرف مختص ليشرف على تربيتهم أسبوعياً، ثم وفق دراسة معينة، ويتعهدوا أيضاً كل شهر ونصف ببرنامج مكثف وتستخدم الدورات والندوات والمخيمات والمعسكرات والرحلات لتحقيق هذه الأهداف السامية، أما البرنامج المعد لهذه المرحلة فيحتوي على تربية روحية، وعقلية وجسمية، واجتماعية وخلقية.

ثانياً: التربية الروحية:

لتزكية الروح وتربيتها طرق عدة من أهمها:

1 ـ التدبر في كون الله ومخلوقاته وفي كتاب الله تعالى حتى تشعر بعظمة الخالق وحكمته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

2 ـ التأمل في علم الله الشامل وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون بل ما في عالم الغيب والشهادة؛ لأن ذلك يملأ الروح والقلب بعظمة الله ويطهر النفس من الشكوك والأمراض.

قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: 59 ـ 61].

3 ـ عبادة الله من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدراً؛ إذ العبادة هي غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده؛ ولذلك قال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: 23]. والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

النوع الأول: العبادات المفروضة كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج وغيرها.

النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع، الذي يشمل كل عمل يعمله الإنسان أو يتركه، بل كل شعور يقبل عليه الإنسان تقرباً به إلى الله تعالى، ما دامت نية المتعبد بهذا العمل، هي إرضاء الله سبحانه وتعالى، فكل الأمور مع نية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى عبادة يثاب صاحبها، وتربى روحه تربية حسنة[1].

إن أثر تربية الروح يتمثل في أمور عديدة نشير إلى أهمها فيما يلي: توثيق صلة الإنسان بربه سبحانه وتعالى، وتوضيح صلة الإنسان بالكون وما فيه، وترشيد هذه الصلة، وتحبيب الإنسان لأخيه المسلم، وحرصه على هدايته وحب الخير له، وتحبيب الإنسان لمخلوقات الله كلها، والتعامل معها، وفق منهج الإسلام ونظامه، وتحبيب الإنسان في الخير عموماً والتقرب به إلى الله، واستعلاء الإنسان على شهوته، وسيطرته على نزعاته، وتوجيه ذلك كله وفق منهج الله ونظامه في الحياة الدنيا، واستعلاء الإنسان على القوة المادية، وعدم الوقوع في أسرها، بل إعطائها حجمها الصحيح، ومكانها المناسب، وتتكون في العبد ملكة يستمد بها القوة من الله وحده[2].

ثالثاً: التربية العقلية:

ونعني بها تربية الفرد وتنمية قدرته على النظر والتأمل والتفكر والتدبر، وذلك هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا المطلب القرآني أرشد إليه ربنا سبحانه وتعالى، في

(1) فقه الدعوة إلى الله (1/ 471، 472).

(2) انظر: المصدر السابق.

محكم تنزيله، وجعله أمراً لكل إنسان، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [يونس: 101]، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137]. وقوله سبحانه: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [العنكبوت: 20]. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: 29].

وقوله جل شأنه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ۝٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ۝٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ۝٣٣﴾ [عبس: 24 ـ 32].

العقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمة؛ ولذلك اهتمت التربية الإسلامية بالنظر إليه وجعله المولى ﷻ مناط التكليف عند الإنسان، فمن حرم العقل لجنون أو غيره، فهو غير مكلف، أو قد سقط عنه التكليف، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: 36]، كما يعتبر العقل نعمة من الله على الإنسان، يتمكن بها من قبول العلم واستيعابه؛ ولذلك وضع الإسلام لتربية العقل منهجاً يتمثل في عدد من النقاط من أهمها:

1 ـ تجريد العقل من المسلمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد، فقد حذر القرآن الكريم من ذلك، قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: 28].

وقال سبحانه: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

2 ـ إلزام العقل بالتحري والتثبت، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6].

3 ـ دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الحجر: 85].

4 ـ دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات، ومعاملات، وأخلاق، وآداب، وأسلوب حياة كامل، في السلم والحرب، في الإقامة والسفر؛ لأن ذلك فوق أن ينضج العقل وينميه، بتعرفه على تلك الحكم، يعطيه أحسن الفرص ليطبق الشرع

الرباني في حياته، ولا يبغي عنه حولاً، لما فيه من السكينة والطمأنينة والسعادة البشرية؛ ولأن الله سبحانه وتعالى إنما شرع ما شرع لذلك، قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: 26 ـ 28].

وقال سبحانه: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119].

إن علماء الأمة وفقهائها على مر العصور والأزمان منذ بزوغ الإسلام إلى عصرنا الحاضر غاصوا في حكم التشريع وحكمته وتركوا للعالم كله رصيداً هائلاً ضخماً في أبواب الفقه الإسلامي، والمعاملات بين النَّاس وكان ذلك من أسباب سعادة الدنيا والآخرة لمن التزم بالمنهج الرباني[1].

5 ـ دعوة العقل إلى النظر في سنة الله في النَّاس عبر التاريخ البشري، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6]، .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يونس: 13 ـ 14].

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: 9]، وهذا هو المنهج الرباني للعقل لكي لا يضل في التيه، الذي ضل فيه كثير من الفلاسفة، الذين قدسوا العقل وأعطوه أكثر مما يستحق.

---

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله (1/ 574).

وأما الآثار العملية من هذا التوجيه الرباني للعقل فتتمثل في أمور من أهمها:

1 ـ تنقية العقل من الوهم والخرافة، والدجل والمسلمات المبنية على الظنون والأوهام وتربيته على التريث والتثبت، حتى لا يتسرع، فيظلم، ويندم وحينئذ لا ينفع الندم.

2 ـ تعويد العقل على إدراك حقيقة هذا الكون الذي يعيش فيه وإلزامه بأن يتعرف على الحق عن قرب ويقين.

3 ـ أقدار العقل على التأمل والنظر في حكمة الله سبحانه وتعالى، فيما شرعه للناس من منهج ونظام، يحقق لهم سعادة الدارين، وتمكين العقل من التأمل في تاريخ البشرية، وهذا التاريخ هو أكبر كتاب، وأوسعه أبواباً وفصولاً ليخرج بفائدة جليلة يستطيع أن يقارن بدقة وحسم بين الكفر والإيمان، وأعمال المؤمنين وضلال الكافرين.

رابعاً: تربية الجسم:

إن الله تعالى أخبرنا أنه خلق آدم عليه السلام من سلالة من طين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: 7 ـ 9].

وهذه الآيات إشارة إلى أن الإنسان يتكون من طاقات ثلاث منحها الله للإنسان، طاقة العقل، وطاقة الروح، وطاقة الجسم، ثم استخلفه الله في الأرض، وطلب منه أن يعمرها، قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61].

وقد بينت منهج الإسلام في تربية الروح والعقل، ولابد من بيان منهج القرآن الكريم في تربية الجسم البشري، بحيث يؤدي وظيفته دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته، على حساب طاقة أخرى؛ ولذلك أرشد القرآن إلى ما أحله الله من الطيبات، واجتناب ما حرم الله من الخبائث، وأنكر على أولئك الذين يحرمون أبدانهم من تلبية حاجاتها على الوجه المشروع، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [المائدة: 87 ـ 88].

ولا شك أن تحقيق هذه الحاجات، يمكن الإنسان من أداء وظائفه، التي وظفه الله لها في الأرض من عبادة الله واستخلاف في الأرض، وإعمارها، وتعارف وتعاون وتناصر وتمكن وأمر بمعروف ونهي عن المنكر وجهاد في سبيل الله، وبغير تحقيقها لا يكون شيء من ذلك[1].

ولذلك ضبطت الشريعة ـ على نحو دقيق ـ حاجات الجسم البشري على النحو التالي:

1 ـ حاجته إلى الطعام والشراب بقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

2 ـ وحاجته إلى الملبس والمأوى، بأن أوجب من اللباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم من عاديات الحر والبرد، وأوجب ما يكون زينة عند الذهاب إلى المسجد، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31].

3 ـ والحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: 80].

4 ـ وحاجته إلى الزواج والأسرة، بإباحة النكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزنا، والمخادنة، واللواط، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: 5 ـ 7].

5 ـ وحاجته إلى التملك والسيادة، بأن أباح التملك للمال والعقار، ولكن حرم الاحتكار، واكتناز الأموال، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: 46].

6 ـ والسيادة بتحريم الظلم والعدوان والبغي، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام 21]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: 37]. مع أنه ـ سبحانه وتعالى ـ جعل هذه الأمة وسطاً، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: 143].

7 ـ وحاجته إلى العمل والنجاح، بأن جعل من اللازم أن يكون العمل مشروعاً، وغير ضار بأحد من النَّاس، ونادى على المسلمين أن يعملوا في هذه الحياة الدنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدعوة والدين، وما يدخرون عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى

(1) فقه الدعوة إلى الله (1/ 487).

﴿ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف 129]. وربط العمل بالإيمان في كثير من آيات القرآن الكريم، وشرط في العمل أن يكون صالحاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30]. بل طالب بالإحسان في العمل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: 90].

8 ـ والنجاح، بأن يكون الهدف من العمل الناجح، وجه الله ورضاه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125].

9 ـ وحاجة الجسم إلى الراحة والاسترواح، بأن حذر من الإسراف فيها، حتى لا تتحول إلى دعة وكسل، والأصل في الشريعة الإسلامية أنها خالية من كل إعنات، أو إرهاق للإنسان، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]. وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28].

وحذر سبحانه من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة، قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: 58].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47].

هذه بعض التعاليم من منهج الإسلام في تربية الجسم، حتى يستطيع أن يتحمل أثقال الجهاد وهموم الدعوة وصعوبة الحياة، ولاشك أن كل هذه الأنواع من تربية الإسلام للجسم، يحتاج إليها كل النَّاس ولكن المنضمين إلى مرحلة الإعداد والتربية يحتاجون إلى هذه الأمور احتياجاً أساسيًا.

خامساً: تربية الحس الاجتماعي:

لقد اهتم القرآن الكريم بالتربية الاجتماعية في الإنسان ووضع لها دعائم:

الدعامة الأولى: تنمية حب الإنسان لأخيه الإنسان المؤمن:

وتلك القاعدة التي ترتكز عليها الحاسة الاجتماعية في البشر عموماً، ويتضح هذا من سيرة النبيّ ﷺ عندما وصل إلى المدينة فآخى بين المهاجرين والأنصار في الله، وأصبحوا أخوة وسجل ذلك في وثيقة مكتوبة، نقشت في قلب كل مؤمن، بل صاروا يتوارثون بمقتضى هذه الأخوة، وظل هذا التوارث سارياً، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 75]، فألغى التوارث، وبقيت الأخوة في الله على ما كانت عليه من قوة ووثاقة، ولا تزال بين الواعين من المؤمنين حتى اليوم، ولقد تأكدت الأخوة بين المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

ولقد كان من مقتضى فقه الأنصار للأخوة في الله، أن حملوا أعباء إخوانهم المهاجرين، ومدح الله سبحانه ذلك الفقه والعمل، وأثنى عليه بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

الدعامة الثانية: استجابة الإسلام لحاجات المجتمع، كاستجابته لحاجات الفرد:

وقد عمل على تحقيق حاجات المجتمع في إطار ما أحل الله، وبحيث لا يضر بأحد من النَّاس، ومن حاجات المجتمع[1].

1 ـ التعاون والتكافل:

لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتعاون وأوجبه عليهم، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]

2 ـ التناصر والتواصي بالحق والصبر:

قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر].

والتواصي بالحق يدفع عن النَّاس كل مصيبة ويقضي على المنكرات والآثام التي في المجتمع ويجعلها تنحسر، والتواصي بالصبر يجعل المجتمع تسري فيه العدالة ويرتفع الظلم وتسوده المودة وتزول العجلة.

3 ـ الحث على التراحم بين أفراد المجتمع:

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

وأثنى ـ سبحانه وتعالى ـ على المؤمنين المتراحمين في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله (1/ 507).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾ [البلد: 17 ـ 18].

وهذه الآيات لم تحصر حاجات المجتمع، بل حثته بمفهومها العام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى جلب المصالح، ودفع المفاسد، والجهاد في سبيل الله وتجهيز الغزاة، وعلى تأمين العيش الكريم لكل أفراده[1].

الدعامة الثالثة: تحديد الصفات التي يجب أن تسود المجتمع:

قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: 36 ـ 43].

لقد ذكرت الآيات الكريمة الصفات الرفيعة والتي إن سادت في المجتمع يصبح سعيداً راشداً.

فقد أشارت إلى الإيمان بالله، والتوكل عليه سبحانه، واجتناب كل إثم وفاحشة والصفح والتسامح، والاستجابة لكل ما أمر الله به، وإقام الصلاة، وممارسة الشورى في كل ما يعنيهم من أمر، والإنفاق في سبيل الله ووجوه الخير، والانتصاف من كل عدو للإسلام والمسلمين، وهو مقتضى العدل، والعفو والتسامح مع القدرة على الانتصاف، وهو مقتضى الإحسان، والانتصار بعد الظلم، والصبر على المظالم والتجاوز عن الظالم لعل الله يهديه، بشرط ألا يكون ذلك مؤدياً إلى الفساد والشر والدعوة للمغفرة وهكذا يكون المجتمع الإسلامي[2].

الدعامة الرابعة: تأكيد خيرية هذا المجتمع الذي انصهر في تعاليم الإسلام: ووضعه في مقدمة المجتمعات لقيادته كلها إلى الإيمان والمنهج الرباني والحق والخير والصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

---

(1) فقه الدعوة إلى الله (1/ 508).

(2) المصدر السابق (1/ 509).

وهذه خيرية تقوم على الإيمان، والعمل الصالح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بعيدة كل البعد عن الخيرية العرقية، والجنسية، والقومية، كما زعمت أمة اليهود، وانخدعت أمة الألمان بالعرقية منذ خمسة عقود فكلفتها وكلفت العالم كله حرباً دامية مات فيها ملايين من البشر.

هذه أهم الدعائم التي يجب أن تسود في المجتمع، وينبغي أن يقوم برنامج هذه المرحلة عليها وأن يوزع على كل المشرفين في مرحلة الإعداد في القرى، والريف، والحواضر، والبوادي، والمدن، والبلديات، ولا شك أن مرحلة الإعداد والتربية من أهم المراحل التي يبنى عليها الأهداف في الوصول إلى التمكين وسيادة شرع الله على العالمين وإقامة دولة الإيمان والتوحيد.

سادساً: عدة القائمين على مرحلة الإعداد والتربية:

مما لا ريب فيه أن الذين يشرفون على مرحلة الإعداد والتربية لهم مواصفات خاصة من التميز الإيماني والتفوق الروحاني، والرصيد العلمي والزاد الثقافي، ورجاحة العقل وقوة الحجة، ورحابة الصدر وسماحة النفس، والخبرات والتجارب الكثيرة، والسياسة الحكيمة وسوف نركز على الأخيرين:

أ ـ الخبرات والتجارب:

إن التجربة لها الأثر العظيم في اكتساب المهارات والخبرات وهي من أعظم اكتساب الحكمة، والتجربة لا تخرج الحكمة عن كونها فضل يؤتيه الله من يشاء، فإنه المعطي الوهاب ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53]، ولكنه سبحانه جعل لكل شيء سبباً يوصل إليه، والتجربة في العلم اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يراد ملاحظتها ملاحظة دقيقة منهجية، للكشف عن نتيجة ما، أو تحقيق غرض معين، وما يعمل أولاً لتلافي النقص في شيء وإصلاحه[1] ويقال: جربه تجربة: اختبره، ورجل مجرب، أي: عرف الأمور[2]، تقول: جربت الشيء تجريباً: اختبرته مرة بعد أخرى، والاسم: التجربة والجمع تجارب[3].

(1) المعجم الوسيط، مادة: جرب (1/ 114).
(2) القاموس المحيط، باب الباء، فصل الجيم، ص 85.
(3) المصباح المنير، مادة: جرب، ص 95.

وعن معاوية[1] ﷺ قال: «لا حكيم إلا ذو تجربة»[2] ومن المعلوم أن الحكيم لابد له من تجارب قد أحكمته، ولهذا قيل: «لا حليم إلا ذو كثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة»[3].

وبهذا نقول: إن الداعية إلى الله إذا خالط النَّاس، وعرف عاداتهم وتقاليدهم، وأخلاقهم الاجتماعية، ومواطن الضعف والقوة، سيركز على ما ينفع النَّاس، ويضع الأشياء في مواضعها؛ لأنه قد جربهم، فالتجارب تنمي المواهب والقدرات، وتزيد البصير صبراً، والحليم حلماً، وتجعل العاقل حكيماً، وقد تشجع الجبان، وتسخي البخيل، وقد تليِّن قلب القاسي، وتقوّي قلب الضعيف، ومن زادته التجارب عمى إلى عماه فهو من الحمقى الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون[4].

وأعظم النَّاس تجربة، وأكملهم حكمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لأنهم صفوة البشر اصطفاهم الله ربهم، ثم أرسلهم لإخراج النَّاس من الظلمات إلى النور، ومع هذا ما بعث الله من نبي إلا رعى الغنم، كما قال ﷺ: «**نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»[5] والحكمة من ذلك - والله أعلم - أن الله - ﷻ - يلهم الأنبياء قبل النبوة رعي الغنم؛ ليحصل لهم التمرين والتجربة برعيها على ما يكلِّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتهم ما يحصل لهم الحلم والشفقة كما قال ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً. الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم**»[6]، ولأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها، من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طبائعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طبائعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم المشقة في ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم

---

(1) هو الصحابي كاتب الوحي، وصهر الرسول ﷺ، تولى خلافة المسلمين، وتوفي عام 60 هـ. سير أعلام النبلاء (3/ 119).

(2) البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المرء من جحر مرتين (10/ 529).

(3) الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التجارب (4/ 379).

(4) انظر: هكذا علمتني الحياة، للسباعي، ص 47.

(5) البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم (3/ 65).

(6) مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان (1/ 71).

بذلك؛ لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقياداً من غيرها[1].

ثم بعد رعيهم الغنم جربوا النَّاس، وعرفوا طبائعهم، فازدادوا تجارب إلى تجاربهم؛ ولهذا قال موسى ﷺ لمحمد ﷺ عندما فرضت عليه الصلاة خمسون صلاة في كل يوم ليلة الإسراء والمعراج: «إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله جربت النَّاس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك»، فما زال النبيّ ﷺ يراجع ربه ويضع عنه حتى أمر بخمس صلوات كل يوم[2].

فموسى ﷺ قد جرب النَّاس، وعلم أن أمة محمد ﷺ أضعف من بني إسرائيل أجساداً، وأقل منهم قوة، والعادة أن ما يعجز عنه القوي فالضعيف من باب أولى[3]. فالداعية بتجاربه بالسفر، ومعاشرته الجماهير، وتعرفه على عوائد النَّاس وعقائدهم، وأوضاعهم، ومشكلاتهم، واختلاف طبائعهم وقدراتهم، سيكون له الأثر الكبير في نجاح دعوته وابتعاده عن الوقوع في الخطإ؛ لأنه إذا وقع في خطإ في منهجه في الدعوة إلى الله، أو في أموره الأخرى لا يقع فيه مرة أخرى، وإذا خدع مرة لم يخدع مرة أخرى، بل يستفيد من تجاربه وخبراته؛ ولهذا قال ﷺ: «**لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»[4].

وقال: «**كلكم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»[5].

وسبيل الاستفادة من التجارب والخبرات هو خوضها؛ فمثلاً من أراد إصلاح المتدينين وتوجيههم فعليه أن يعيش معهم في مساجدهم، ومجتمعاتهم، ومجالسهم، وإذا أراد إصلاح الفلاحين والعمال عاش معهم في قراهم ومصانعهم، وإذا أراد أن يصلح المعاملات التجارية بين النَّاس، فعليه أن يختلط بهم في أسواقهم ومتاجرهم، وأنديتهم، ومجالسهم، وإذا أراد أن يصلح الأوضاع السياسية، فعليه أن يختلط بالسياسيين، ويتعرف إلى تنظيماتهم، ويستمع لخطبهم، ويقرأ لهم برامجهم، ثم يتعرف إلى البيئة التي يعيشون فيها، والثقافة التي حصلوا عليها والاتجاه الذي يندفعون نحوه؛ ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسهم، وكيف

---

(1) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص 104.
(2) البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (7/ 202).
(3) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص 105.
(4) البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (7/ 202).
(5) الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حدثنا هناد (4/ 659).

يسلك في إصلاحهم بما لا يدعوهم إلى محاربته عن كره نفس واندفاع عاطفي، فيحرم نفسه من الدعوة إلى الله ويحرم النَّاس من علمه[1]، وهذا يؤهله إلى أن يحدِّث النَّاس بما يعرفون ولا يحدثهم حديثاً لا تبلغه عقولهم، قال علي ﷺ : «حدثوا النَّاس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»[2].

وقال ابن مسعود ﷺ : «ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[3].

وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة المسؤولون على إعداد الربانيين حتى يورثوهم خبراتهم وتجاربهم في الحياة، ومعرفتهم بشؤون النَّاس[4].

ب ـ أن يكون ذا سياسة حكيمة:

إن النبيّ ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا، وإمام الدعاة إلى الله، فقد سلك مسلكاً عظيماً في سياسته الحكيمة، فكان له عظيم النفع والأثر في نجاح دعوته، وإنشاء دولته، وقوة سلطانه، ورفعة مقامه، ولم يعرف في تاريخ السياسات البشرية أن رجلاً من الساسة المصلحين في أي أمة من الأمم كان له مثل هذا الأثر العظيم، ومَن مِن المصلحين المبرزين ـ سواء كان قائداً محنكاً، أو مربياً حكيماً ـ اجتمع لديه من رجاحة العقل، وأصالة الرأي، وقوة العزم، وصدق الفراسة، ما اجتمع في رسول الله ﷺ؟ ولقد برهن على وجود ذلك فيه، صحة رأيه، وصواب تدبيره، وحسن تأليفه، ومكارم أخلاقه ﷺ[5]. والطرق في السياسة الحكيمة في الدعوة إلى الله كثيرة، منها ما يأتي:

1 ـ تحري أوقات الفراغ، والنشاط، والحاجة عند المدعوين حتى لا يملوا من الاستماع ويفوتهم من الإرشاد والتعليم النافع، والنصائح الغالية الشيء الكثير، وقد ثبت عن النبيّ ﷺ أنه كان يتخول أصحابه بالموعظة كراهة السآمة عليهم، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: «كان النبيّ ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا»[6]. ولهذا طبق الصحابة هذه السياسة، فقد كان عبد الله بن مسعود يذكر النَّاس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد

(1) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، ص 41.
(2) البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم (1/ 225).
(3) مسلم، في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (1/ 111).
(4) انظر. الحكمة في الدعوة إلى الله، ص 106.
(5) انظر: هداية المرشدين، للشيخ علي بن محفوظ، ص 24، 31.
(6) البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم (1/ 225).

الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، قال: أما أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبيّ ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا[1].

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[2].

2 ـ أن يحرص على سلاح التأليف بالعفو عند المقدرة: فيعمل على أن يضع الإحسان في مكان الإساءة، واللين في موضع المؤاخذة، والصبر على الأذى، فيقابل الأذى بالصبر الجميل، ويقابل الحمق بالرفق والحلم، ويقابل العجلة والطيش بالأناة والتثبت، وبذلك يملك قلوب إخوانه والمدعوين إلى الإسلام عموماً.

وبمثل هذه المعاملة الحسنة جمع النبيّ ﷺ قلوب أصحابه حوله، فتفانوا في محبته والدفاع عنه، وعن دعوته بمؤازرته ومناصرته، وقد مدح الله رسوله، وأمره بالعفو والصفح والاستغفار لمن تبعه من المؤمنين: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

3 ـ عدم مواجهة أحد بعينه: عندما يريد أن يؤدبه أو يزجره ما دام يجد في الموعظة العامة كفاية، وهذا من السياسة البالغة في منتهى الحكمة؛ ولهذا كان النبيّ ﷺ يسلك هذا الأسلوب الحكيم، فعندما فقد ﷺ ناساً في بعض الصلوات، فقال: «**والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً يؤم النَّاس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم**»[3]، وقال ﷺ: «**ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة**»، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «**لينتهنّ عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم**»[4].

وقال: «**ما بال أقوام قالوا كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[5].

---

(1) البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبيّ ﷺ يتخولهم بالموعظة (1/ 3).
(2) المصدر السابق (1/ 3) رقم 69.
(3) البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب صلاة الجماعة (1/ 179) رقم 644.
(4) البخاري، كتاب الأذان، باب رفع البصر في الصلاة (1/ 205) رقم 750.
(5) مسلم، كتاب الفضائل، باب علمه وشدة خشيته (4/ 1829).

ولما بلغه أن قوماً اشترطوا الولاء بعد بيع الأمة فخطب النَّاس فقال: «**ما بال أناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق**»[1].

وهذا إرشاد نبوي حكيم في عدم مواجهة النَّاس بالعتاب ستراً عليهم ورفقاً بهم وتلطفاً، ويستطيع أن يخاطب النَّاس عن طريق مخاطبة الجمهور إذا كان المدعو المقصود بينهم ومن جملتهم، وهذا من أحكم الأساليب.

4 ـ إعطاء الوسائل صورة ما تصل إليه، كقوله ﷺ: «**من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله**»[2].

فقد صور ﷺ الدلالة على فعل الخير في صورة الفعل نفسه وكقوله ﷺ: «**من جهز غازياً فقد غزا**»[3]، وقال ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**» قيل: يا رسول الله ﷺ، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه**»[4].

وهذا أصل في سد الذرائع، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل وإن لم يقصد إلى ما يحرم[5]، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108].

فقد أعطى النبيّ ﷺ من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه؛ لأنه تسبب في سبهما.

5 ـ أن تكون له مقدرة على ضرب الأمثال، قال ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**»، وشبك بين أصابعه[6]، وقد مثل النبيّ ﷺ المؤمنين في تبادل الرحمة والمودة والعطف، بالجسد في روابطه العضوية، إذا مرض عضو مرضت باقي الأعضاء، فقال: «**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»[7].

---

(1) مسلم، كتاب العتق، باب إنما الولاء لمن أعتق (2/ 1142).
(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله (3/ 1506).
(3) المصدر السابق (3/ 1507).
(4) البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه (7/ 92) رقم 5973.
(5) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص 111.
(6) البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع (1/ 565) رقم 481.
(7) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم (1/ 102) رقم 6011.

وهذه من أهم الوسائل التي إذا وصل إليها الداعية أصبحت له سياسة حكيمة في معرفة النَّاس، وتربيتهم، وإعدادهم، وعلى الداعية المربي أن يلم بفقه الدعوة وأسسها وأصولها التي تقوم عليها، حتى يسير في دعوته على بصيرة، ولاشك أن فهم هذه الأركان يدخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

إن فهم أساليب الدعوة ووسائلها تعطي الداعية كفاءة وبصيرة وتزيده إتقاناً وخبرة.

سابعاً: صفات جيل التمكين:

إن في مرحلة الإعداد والتربية يهتم المشرفون عليها من الدعاة بصفات جيل التمكين، ويعملون على غرسها في نفوس العناصر التي اختيرت لهذه المرحلة؛ لعلمهم اليقيني أن لجيل التمكين صفات خاصة، تميزه عن غيره من الأجيال، وسمات يعرف بها ذلك أنه الجيل الذي يعد ليكون مؤهلاً لنصر الله، وسبباً لإعادة مجد الأمة التي اختارها الله لإعلاء كلمته ونصر دينه وعقيدته، وعندما تبرز صفات جيل التمكين في الصف الإسلاميّ يكون مؤهلاً للتغلب على التحديات التي تواجهه سواء كانت محلية، أو داخلية، أو عالمية، ويمكننا تقسيم صفات جيل التمكين إلى: صفات إيمانية، وصفات سلوكية أخلاقية، وصفات حركية ودعوية، وصفات نفسية.

أ ـ صفات إيمانية:

1 ـ ربانية وإخلاص:

يعيش جيل التمكين الرباني في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويعيشون فوق الأرض وقلوبهم تهفو إلى رضا المولى ﷻ ودخول جناته ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وأبرز ما يميزهم عن غيرهم أنهم مخلصون لله رب العالمين، فإذا جاءتهم الدنيا جعلوها في أيديهم ولم يدخلوها في قلوبهم، لا يعبدون الأشخاص ولا الأهواء ولا الطاغوت أيًا كانت، فقد تبين لهم الرشد من الغي فكفروا بالطاغوت وآمنوا بالله وحده فاستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

2 ـ الشعور بمعية الله ﷻ:

وهذا الشعور يدفع العبد المؤمن إلى الصدع بالحق ويطرح صاحبه وراءه الجبن والخوف والهلع ويحدث في النفس انقلاباً نفسياً في حياة الداعية، ولنتذكر حين قال أصحاب موسى: إنا لمدركون قال موسى عليه السلام: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

3 ـ غرباء في هذه الدنيا:

إن هذا الصنف هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء**»، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله ﷺ؟ قال: «**الذين يصلحون إذا فسد الناس**»[1].

والمسلم إذا شرح الله صدره للإسلام وملأ قلبه بالإيمان يستسهل كل صعب ويستعذب كل كدر، إن هذا الغريب يرسل للناس من الأشعة الهادية ما ينير لهم الطريق، فهي ليست غربة عزلة وفرار، ولكنها غربة رفعة وسمو، وحرص على إيصال دعوته للجميع، فهو لا يعيش في برج عاجي بعيداً عن النَّاس بل يتفاعل معهم ويحمل همومهم ويعاونهم في حل مشاكلهم، فالنَّاس جزء منه وهو جزء منهم فلا يتصور أن يتعالى عليهم.

4 ـ طلاب آخرة:

لعلمهم بأن متاع الدنيا قليل، وبأنه ينتهي ويزول: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77] وهذا ينشئ سعة في نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وتحرراً من المادة وظلامها.

5 ـ أوابون توابون:

يجب أن يتربى المسلمون على الحذر من معصية الله أكثر مما نحذر من أعداء الله، ويجب أن نخاف المعاصي، والمسالك التي تقرب منها سداً للذريعة وبعداً عن الفتنة واتقاء للشبهة، ونستغفر الله ونذكره كثيراً إذا وقعنا في معصية فهذه ميزة الصالحين أنهم: ﴿إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

ورحم الله عمر الفاروق رضي الله عنه عندما وصى سعد بن أبي وقاص وهو في مسيره إلى حرب الفرس فقال: «... أما بعد، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو وأقوى المكيدة[2] في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم،

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً (1/ 130) رقم 145.
(2) المكيدة: الخديعة.

وعُدتنا ليس كعُدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدوَّنا شر منهم، كما سُلط على بني إسرائيل ـ لما عملوا بالمعاصي ـ كفار المجوس: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا﴾ [الإسراء: 5].

وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم...»[1].

وهذه مفاهيم إيمانية يجب أن تعيشها الأمة:

1 ـ اليقين والثقة بمنهج الله، وأنه الحق وما عداه باطل.

2 ـ الوعي بدورها ومهمتها وهي الشهادة على العالمين، ولن تتحقق إلا بالعيش مع الكتاب والسُّنَّة.

3 ـ اليقين بضخامة الأجر وعظم المنزلة المترتبة على القيام بالشهادة.

4 ـ اليقين بنصر الله وأنه لابد آت.

5 ـ اليقين بأن نصر الله لا يتنزل جزافاً.

ب ـ صفات سلوكية وأخلاقية:

ولا بد لجيل التمكين من صفات أخلاقية سلوكية يجب أن يتحلى بها ومن أبرزها:

1 ـ الصدق:

وهو سلوك وصف الله ـ ﷻ ـ به أنبياءه ـ عليهم السلام: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ [مريم: 54]، واتصف به حبيبنا ﷺ حتى قبل بعثته، ووصف به ربنا سبحانه الرجال فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: 23].

2 ـ الصبر:

خُلُقٌ وصف الله تعالى به الدعاة: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ ...﴾ [السجدة: 24] وهو خلق لازم للداعية ويكفي أن يعلم الداعية جزاء الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [الزمر: 10].

---

(1) إتمام الوفاء، للخضري، ص 72.

ولنا في قدوتنا ﷺ أسوة حسنة في صبره على أهل مكة وما لاقاه عند عودته من الطائف وغيرها.

3 ـ الحب والإيثار:

أي يرى الداعية أن إخوانه أولى به من نفسه، فهو يحب لهم الخير ويعمل على هدايتهم ولابد أن يفصح لهم عن حبه لهم ويخبرهم به وأن يترجمه لهم في تصرفاته، فإن هذا أدعى إلى التفاف النَّاس حوله واستجابتهم له، وأعلى مراتب الحب الإيثار وأدناها سلامة الصدر، وأن يكون لإخوانه كالبنيان يشد بعضه بعضاً[1] قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال 62 ـ 63].

4 ـ العطاء والبذل والجود:

وهي صفة بارزة في حياة المؤمن فهي قاعدة المجتمع المؤمن المتكافل المتضامن، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ «لم يكن يسأل شيئاً إلا أعطاه، وقال: فأتاه رجل فسأله فأمر له بشياه كثيرة بين جبلين من شياه الصدقة، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»[2]، ونعم العطاء هذا الذي يجعل البعض يحب الإسلام وأهله، ويفتح الأبواب الموصدة والقلوب المغلقة. إن الإيثار على النفس مع الحاجة قمة عليا يجب لمن وصل إلى مرحلة الإعداد والتربية أن يكون له فيها نصيب كبير.

ومراتب الجود والإيثار كثيرة منها:

- الجود بالنفس وهو أعلى المراتب.
- الجود بالعلم وبذله.
- الجود بالنفع بالجاه كالمشي في قضاء مصالح المسلمين.
- الجود بالصبر والاحتمال.
- الجود بالراحة فيتعب في قضاء مصالح غيره.
- الجود بترك ما في أيدي النَّاس لهم، فلا يلتفت إليه بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا بلسانه، وغير ذلك من أنواع الجود.

---

(1) انظر: نظرات في رسالة التعاليم، ص 294.

(2) مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن النَّاس خلقاً (4/ 1804) رقم 2312.

5 ـ العفة والاستغناء عن النَّاس:

إنه جيل مرتبط بالله ﷻ لا يعمل إلا لله ولا يسأل إلا الله فهو غني بالله؛ ولذلك امتلأت نفوسهم عفة لا يتطلعون إلا إلى فضل الله، ولا يرجون إلا رحمة الله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24].

ورضي الله عن ابن عوف عندما عرض عليه أخوه سعد بن الربيع ﷺ أن يشاطره ماله وبيته ويتزوج إحدى نسائه فقال له: بارك الله لك في مالك وأهلك ولكن دلني على السوق[1].

لقد علم أن الغنى في قناعة النفس ورضا القلب وغناه عن التطلع لما في أيدي النَّاس من حظوظ الدنيا.

جـ ـ الصفات الحركية والدعوية:

1 ـ يجب أن يتولد لدى جيل التمكين شعور ذاتي بمسؤولية العمل للإسلام واستعداد كامل لتلبية حاجات هذه المسؤولية من النفس والجهد، فهو لا ينتظر التكليف الحركي لينهض بالأعباء والمسؤوليات، وإنما يتولد في أعماقه شعور بالمسؤولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف.

فهذا أبو بكر الصديق ﷺ عندما التزم بالإسلام تفجرت فيه الذاتية الحركية فذهب إلى بلال بن رباح، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، ودعاهم للإسلام فأسلموا، وقد ذكر لنا القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون وكيف قام بدعوة قومه إلى الإيمان بدعوة موسى عليه السلام.

2 ـ يؤمن بالواقعية والعملية:

فهو بعيد عن الغوغائية ويحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض، فلا يجري وراء خيال كاذب ولا أماني موهومة فيسبح في غير ماء، ويطير بغير جناح، جيل كبير الآمال ولكنه واقعي التفكير، ولا ييأس من روح الله ولا يقنط من رحمة ربه لكنه يعرف حدود قدراته، ودوائر إمكاناته، يراعي سنن الله في كونه، كما يراعي أحكامه في شرعه ويتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، يؤمن بالعلم ويحترم العقل ولا يتبع الظن وما تهوى الأنفس، ويرفض الخرافة.

---

(1) انظر: أسد الغابة (2/ 196).

3 ـ جيل عمل وبناء جماعي:

فلا يقف أبناؤه عند التغني بأمجاد الماضي، ولا عند النواح على هزائم الحاضر، ولا عند التمني لانتصارات المستقبل، وإنما يؤمن بالعمل والعطاء والإنتاج وأن الإيمان الحق ما وقر في القلب وصدقه العمل، وما خلق الله النَّاس إلا ليعملوا بل ما خلقهم إلا ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

وقد علموا من حقائق التاريخ، وقراءة الواقع، أن أهل الباطل يتكتلون حول باطلهم، فأولى بأهل الحق أن يتجمعوا حول حقهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4].

لهذا صمموا على أن يبحثوا عن أشباههم ممن ينشدون الحق ويرفضون الباطل ويدعون إلى الخير وينكرون الشر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر... فمضوا في طريق العمل الجماعي يعملون في صمت، ويبنون في صبر ويجاهدون بلا كلل، ولا ملل، وعزموا على أن يكونوا متعاونين على البر والتقوى متكاتفين في السراء والضراء.

4 ـ جيل دعوة وجهاد:

كما كان الصحابة من المهاجرين والأنصار لا يشغلهم جهاد عن جهاد ولا ميدان عن ميدان، فهم دائماً في صراع متواصل مع الفجرة في الداخل والكفرة في الخارج، لا يلقون سلاحهم ولا يستريحون من كفاحهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله. قد ترى أحدهم وهو العربي يقاوم الزحف الشيوعي الأحمر في أفغانستان، وترى آخر وهو أفغاني يقاتل الصرب في البوسنة، فالكفر ملة واحدة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 73]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71]. يجاهدون في سبيل الله في كل معركة تطلبهم وبكل سلاح يمكنهم.

5 ـ جيل توازن واعتدال:

فهم متوازنون معتدلون على صراط مستقيم لا يميلون إلى اليمين ولا ينحرفون إلى الشمال لا يغرقون في الماديات ولا يغرقون في الروحانيات، يعلمون أن لربهم عليهم حقاً، وأن لأنفسهم عليهم حقاً، وأن لأسرهم عليهم حقاً، ولمجتمعهم عليهم حقاً فهم يعطون كل ذي حق حقه، غير جانحين إلى الإفراط ولا مائلين إلى التفريط، يأخذون بالعزائم ولا يغفلون الرخص فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه... يبشّرون ولا ينفرون، وييسّرون ولا يعسّرون، ويجادلون بالتي هي أحسن: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ

وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. يفرقون بين الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، والقضايا المصيرية والمسائل الجانبية، ويمزجون بين الروح والمادة، والعقل والقلب، بين الثبات على الغايات والتطور في الأساليب، بين أداء الواجبات وطلب الحقوق، بين الحرص على القديم والاستفادة من الجديد، فلا ينقطعون عن الماضي ولا ينعزلون عن الحاضر، فرسان بالنهار ورهبان بالليل، لا تلههم نافلة عن فريضة ولا فرض عن مثله.

6 ـ جيل منضبط:

يعيش جو الانطلاقة بضوابطه، فيتحرك بدعوته وفكره بين النَّاس، مراعياً الضوابط الحركية حتى لا تكون حركة غوغاء، ولا تمنعه الطاعة من إبداء آرائه في جو من الصراحة والوضوح، وتتسع صدوره لآراء المخالفين، ولا يجد غضاضة في التنازل عن رأيه إذا استقر رأي الشورى على رأي آخر، يعرف ما الذي يعلن من دعوته فلا يتردد في الجهر به وتعليمه للناس وما الذي يسر فلا يبوح به ولو لأقرب النَّاس إليه.

د ـ الصفات النفسية:

من الصفات النفسية التي يجب أن يتحلى بها جيل التمكين:

1 ـ إرادة قوية لا يتطرق إليها لين ولا ضعف:

يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ [آل عمران: 146]. ومن مظاهرها:

ـ معرفة الهدف والإصرار على تحقيقه والوفاء له.

ـ الهمة العالية والعمل الدائب المتواصل.

ـ محاسبة النفس بشدة والانتصار عليها.

ـ مخالطة النَّاس والصبر على أذاهم.

ـ الصبر وتحمل المشاق والصعاب والتغاضي عن الهفوات.

ـ الصراحة في الحق والانصياع له والاعتراف بالخطأ وعدم إفشاء السر.

ـ استشراف الأمل وعدم اليأس وسياسة النفس الطويل.

2 ـ تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل:

ومن مظاهر التضحية العزيزة:

ـ وضع الدعوة في قمة الأولويات مع استصحاب نية التضحية.

ـ القدوة في بذل العزيز على النفس: (المال ـ الراحة ـ النفس ـ فراق الأهل...).

ـ تربية من يعولهم على البذل والعطاء والتضحية.

ـ ربط المصير بالمصير وأن يوطن ظروفه مع ظروف الدعوة.

ـ تخليص النفس من كل مظاهر الطمع والبخل.

ـ تقديم مصلحة الدعوة على المصلحة الفردية.

ـ الاستعداد الكامل لتنفيذ الأمر على أي حال وتحت أي ظرف.

3 ـ وفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر:

ومن أنواع الوفاء:

وفاء مع الله ـ مع الدعوة ـ مع الأخوة ـ مع النفس ـ مع النَّاس ـ ومن مظاهر الوفاء الثابت:

ـ الاعتراف بالجميل، وتوريث الدعوة، وفتح مجالات عمل جديدة.

ـ الاستمرارية في العمل حتى أحلك الظروف.

ـ المصارحة والنصيحة بآدابها الشرعية.

ـ حمل الأهل والأقارب على احترام الدعوة والتحمس لها.

ـ تفقد الغائب والشعور بآلام الآخرين.

ـ إيثار المصلحة الدعوية على المصلحة الفردية.

ـ الذب والدفاع عن الإسلام وقياداته وعلمائه.

4 ـ ومعرفة بالمبدأ وإيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه أو الانحراف عنه أو المساومة عليه أو الخديعة بغيره:

ـ إخلاص الوجهة لله وتصحيح النية دائماً.

ـ وضوح الهدف وطبيعة الطريق وكيفية الوصول إلى الأهداف.

- استشعار ثقل الأمانة والتبعة الملقاة على الدعاة.

- التمسك بالقرآن والسُّنَّة وفهم السلف الصالح.

- العمل الجاد والمتواصل الذي يؤدي إلى أفضل النتائج بأقل مجهود.

- عدم الاجتهاد في الثوابت.

- محاسبة النفس واتهامها عند الاختلاف.

5 - الاتزان النفسي «الانفعالي»:

وهي صفة هامة يجب أن يتصف بها صاحب الشخصية السوية المتزنة ومن أهم مظاهر الاتزان النفسي:

- الثقة بالله - ﷻ - وفي نصره وتأييده لأوليائه، وحسن التوكل عليه.

- ملك النفس عند الغضب.

- العاطفة المتزنة.

- وضع الأمور في نصابها وحجمها دون تضخيم ولا تصغير.

- البعد عن الحساسية المفرطة وأن يؤخذ الكلام على أحسن محمل.

- الانضباط والكتمان وعدم الثرثرة.

- البعد عن الانطوائية.

ذلكم هو الجيل الذي ننشده وتنشده معنا الأمة بكاملها، وهو الجيل الذي تعمل القوى العالمية على إجهاضه وشغله عن معاركه ومعارك أمته الكبرى بمعارك جانبية تافهة، وإغراقه في دوامة من الجدل لا يخرج منها، إن هذا الجيل هو جيل النصر الذي تتحرر على يديه كل أرض دنسها الطواغيت والفجار وهو الذي ترتفع به راية الله في أرض الله، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله - ﷻ - عندما كانت صفات جيل التمكين متمكنة في الجيل الإسلاميّ الأول استطاع ذلك الجيل أن:

- يحرر الجزيرة العربية من دنس الصهيونية في بني النضير، وبني المصطلق، وبني قينقاع وخيبر.

- يستأصل شأفة الوثنية في بدر والأحزاب وفتح مكة.

- ينكس رايات الصهيونية في اليرموك وحطين.

- يهزم المجوسية في القادسية.

نحن نحتاج اليوم إلى جيل كالجيل الذي كان منه:

- الحاكم الذي لا يتنكف عن الاعتراف بالخطأ فيقول في شجاعة - كما قال عمر رضي الله عنه: «أصابت أمرأة وأخطأ عمر»[1].

- الحاكم الذي يحرض الرعية على مراقبته والنصح له، فيقول - كما قال الصديق رضي الله عنه: «إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني»[2].

- والعالم الرباني الذي لا تفتقده مسيرة الجهاد فيعطي العلم حقه، والجهاد حقه، ولكل حقه، ويكون إمام محراب وقائد حرب مثله كمثل عبد الله بن المبارك رضي الله عنه المجاهد الذي كتب إلى أخ له عابد اعتكف في الحرم وترك مسيرة الجهاد فقال له:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك بالعبادة تلعب[3]

إن النبي ﷺ حرص كل الحرص في طور الدعوة السرية أن يربي أصحابه على صفات جيل التمكين، ونلاحظ من خلال دراستنا للسيرة أنه ﷺ قام بإعلان الدعوة على قريش والمشركين بعد الإعداد الجيد وبناء القاعدة الصلبة على أسس عقدية وخلقية وأمنية وتنظيمية وحان موعد إعلان الدعوة بنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. فخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**يا صباحاه**» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذباً، قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلا لهذا ثم قام[4]، فنزلت هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1].

ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد

---

(1) سنن البيهقي (7/ 233)، قال البيهقي: «هذا منقطع ومع انقطاعه فيه مجالد وهو ضعيف».

(2) الطبري في تاريخه (4/ 30).

(3) انظر: عبد الله بن المبارك الإمام القدوة لمحمد عثمان، ص 171.

(4) البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ (الفتح 8/ 737) رقم 4972.

توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لابد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له واقع كبير على بقية القبائل. على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية»[1].

ولقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب والكيد المدبر المدروس، ولقد اشتد الصراع بين النبيّ ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح النَّاس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان وهذا في حد ذاته مكسب عظيم للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها، ممن كانوا يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل النَّاس يسلمون بدعاوى القرشيين، بل كان يوجد من مختلف القبائل من يتابع الأخبار، ويتحرى الصواب، فيظفر به.

وكانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل النَّاس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ، وأصبح هذا الحدث العظيم حديث النَّاس في كل مكان، وبدأ رسول الله ﷺ يشق طريقه؛ لكسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة بعد أن رفضت قريش الاستجابة والانقياد للحق المبين[2]، وكان موقفهم كموقف الأقوام السابقة من رسلهم وتعرض النبيّ ﷺ وأصحابه لسنة الابتلاء.

ثامناً: سنة الابتلاء:

الابتلاء ـ بصفة عامة ـ سنة الله تعالى في خلقه وهذا واضح من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: 165]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7]، ، وقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: 2].

والابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً. فلقد جرت سنة الله تعالى ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب.

---

(1) دراسة في السيرة، لعماد الدين خليل، ص 66.

(2) انظر: الغرباء الأولون، لسلمان عودة، ص 167.

وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف. فقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يبتلي المؤمنين ويختبرهم؛ ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك. ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي ﷺ حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يمكَّن، أو يبتلي؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكّن حتى يبتلى. فإن الله ـ تعالى ـ ابتلى نوحاً، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمّداً ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[1].

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص؛ ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ. وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار.

فلو أن قائداً أراد إعداد جنده للفوز في معركة ضارية، أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون عليهم الإعداد؟ أم تكون الرحمة الحقيقية أن يشدد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدهم من أجلها؟

والمؤمنون هم حزب الله وجنوده ـ ولله المثل الأعلى ـ والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى، معركة الحق والباطل والنتيجة المطلوبة من المعركة ليست مجرد النصر، وإنما هي بعد ذلك إقرار المنهج الرباني في الأرض بكل المعاني والقيم التي يحملها ذلك المنهج، وهي الأمانة التي تعرض لحملها الإنسان بقدر الله.

وحمل الأمانة ـ بعد الانتصار على الباطل ـ لا يصلح له كل النَّاس، إنما يحتاج لقوم مختارين، يعدون إعداداً خاصاً ليحسنوا القيام به[2].

وقد علم الله تعالى أن الابتلاء هو وسيلة الإعداد لهذه المهمة العظيمة، وفي قصة طالوت شاهد على ذلك[3]، فطالوت كان مقدماً على معركة ومعه جيش من أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة في تاريخها مرة بعد مرة، وهو يواجه أمة غالبة، فلابد إذاً من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف أمام القوى الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلي على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء. فلابد للقائد إذاً أن يبلو جيشه

(1) انظر: الفوائد، لابن القيم، ص 283.
(2) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ، لمحمد قطب، ص 111، 112.
(3) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص 235.

وصموده وصبره، صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب، ولقد اختار طالوت هذه التجربة وهم عطاش ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه[1].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 249]. ولقد بين الله ـ تعالى ـ هذا الأمر للأمة الإسلامية حتى تكون على بينة من طريقها، ورسالتها وطبيعة هذا الطريق وتلك الرسالة.

وجاء ذلك في مواضع متعددة، وبأساليب مختلفة في القرآن الكريم: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ﴾ [البقرة: 155]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

وقال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 186]. ومن الملاحظ من خلال الآيات الكريمة أن تقرير سنة الابتلاء على الأمة الإسلامية جاء في أقوى سورة من الجزم والتأكيد[2].

«وهذه سنة الله ـ تعالى ـ في العقائد، والدعوات، لابد من بلاء، ولابد من أذى في الأموال والأنفس، ولابد من صبر ومقاومة واعتزام.

إنه الطريق إلى الجنة وقد «**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**»[3] كما أخبر النبيّ ﷺ. ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها، طريق التربية للأمة الإسلامية وإخراج مكنوناتها من الخير، والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة لحقيقة النَّاس، وحقيقة الحياة، وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً وأقواهم شكيمة، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، والصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون»[4].

إن الابتلاء مكمل لحقيقة الإيمان؛ لأن الإيمان أمانة الله ـ تعالى ـ في الأرض، وهذه الأمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها، وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها

(1) انظر: في ظلال القرآن (1/ 268).
(2) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص 237.
(3) مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (4/ 2174).
(4) في ظلال القرآن (1/ 593).

وإخلاص، والذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى كل صنوف المتاع والإغراء[1].

«وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته، ثم تتعرف الجماعة على حقيقة اللبنات التي تتألف منها، ومدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الشدة»[2]. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: 2 ـ 3].

«الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم»[3].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «والاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ إنكاري. ومعناه: أن الله سبحانه لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان[4]، كما جاء في الحديث الصحيح: «**أشد النَّاس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء**»[5].

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن، حيث قال: «**مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد**»[6].

وفي ظلال الآية الكريمة السابقة يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول النَّاس: آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا، ويخرجوا من الفتنة صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب، لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، حتى يصبح خالصاً ثميناً رفيعاً. وهذا هو أصل كلمة

(1) في ظلال القرآن (2/ 1090).
(2) المصدر نفسه (1/ 529).
(3) تفسير النسفي (3/ 249).
(4) تفسير ابن كثير (3/ 405).
(5) سنن الترمذي (4/ 601) حديث حسن صحيح.
(6) مسلم بشرح النووي، كتاب القيامة والجنة والنار (17/ 151).

«الفتنة» اللغوي، وله دلالته وظله وإيحاؤه، وكذلك تصنع الفتنة في قلوب المؤمنين[1] حين تصهرهم بنار الابتلاء، فتخرج من نفوسهم ما قد يكون فيها من خبث وشهوات وأهواء، حتى يكونوا خالصين لله متجردين له صالحين لحمل الأمانة التي أناطها الله بهم[2]، ألا وهي أمانة كريمة، وهي أمانة ثقيلة، ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص، يصبر على الابتلاء ويعلو فوق المحن[3].

إن سنة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات، والأمة الإسلامية أمة من الأمم، فسنة الله تعالى فيها جارية لا تتبدل ولا تتغير، إن الابتلاء سنة الله العامة ي الحياة والأحياء، وسنته سبحانه في الرسل والرسالات. ورسول الله ﷺ ليس بدعاً من الرسل، فكان لابد أن تجري عليه سنة الابتلاء كما جرت على إخوانه المرسلين. ومع ما له ﷺ من عظيم القدر ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل والعناء الطويل[4] وتعرض الصحابة الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ للبلاء مما تنوء به الرواسي الشامخات. لقد أجمع المشركون على محاربة الدعوة الإسلامية؛ لأنها عرت واقعهم الجاهلي وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم ـ أي آراءهم وأفكارهم وتصوراتهم عن الحياة والإنسان والكون ـ فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها، ومن هذه الأساليب:

1 ـ محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ، فذهبت وفود قريش إلى أبي طالب للتنبيه والتهديد بالمنازلة إن لم يكفَّ ابن أخيه عن هذه الدعوة، ثم أرسلوا وفداً للمساومة حيث يطلبون محمداً ﷺ مقابل رجل منهم «عمارة بن الوليد» ليقتلوا هذا الذي خالف دينهم وفرق جماعتهم وسفه أحلامهم ـ كما يدعون ـ فكانت قولة أبي طالب البالغة الدلالة: «والله لبئس ما تساومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه. هذا والله مالا يكون أبداً»[5] ومما جعل أبا طالب يصر على موقفه صَلابَةُ الرسول ﷺ عليه الصلاة والسلام ووثوقه بالحق الذي عليه، وعدم التنازل أو المداهنة في الحق الذي قامت عليه السموات والأرض.

---

(1) في ظلال القرآن (5/ 2720).
(2) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، ص 181، 182.
(3) انظر: في ظلال القرآن (2/ 1090).
(4) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 240، 241.
(5) انظر: ابن هشام (1/ 267).

2 ـ الاتجاه إلى إيذاء المسلمين فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. ولم يقدموا على هذه المحاولة إلا حينما أدركوا وقوف أبي طالب ومن معه من عشيرته إلى جوار النبيّ ﷺ.

وكان الهدف من هذه المحاولة هو الضغط على رسول الله ﷺ كي يتراجع ويكف عما يدعو إليه ولكن المحاولة فشلت حينما أدركوا صلابة المؤمنين، وصلابة الرسول ﷺ.

3 ـ عرض المغريات والمساومات: لقد تركت قريش المساند لرسول الله ﷺ أبا طالب «لأن المحاولات فشلت معه ولأن عصبته واقفة إلى صفه ومن ثم لا بد من مواجهة صاحب الدعوة لصرفه عن دعوته، فعرض عليه المال والشرف، والسيادة على مكة وجعله ملكاً على قريش. وكان المفاوض للرسول ﷺ والعارض عليه تلك العروض هو عتبة بن ربيعة[1]، في بداية الأمر، ثم عرضت عليه من قبل مجموعة من أشراف قريش وبالرغم من ذلك الإغراء الذي تضعف أمامه القلوب البشرية ومن أراد الدنيا وطمع في مغانمها، إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ موقفاً حاسماً في وجه الباطل دون مراغمة أو مداهنة، أو الدخول في دهاء سياسي أو محاولة وجود رابطة استعطاف أو استلطاف مع زعماء قريش[2]، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان بعيداً عن المداهنة والتنازل؛ ولذلك كان رد رسول الله ﷺ «**ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم**»[3].

بهذا الموقف الإيماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها سواء في جوهرها أم في الوسيلة الموصلة إليها[4].

4 ـ مطالب التحدي: أخذ عناد المشركين يقوى، ولجاجتهم تشتد، وقد أرادوا إخراج الرسول ﷺ وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته.

---

(1) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (1/ 503، 504).
(2) انظر: الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي لعلي الأسطل، ص 37.
(3) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص 38.
(4) المصدر نفسه، ص 39.

قال عبد الله بن عباس: «قالت قريش للنبيّ: ادعُ لنا ربك أن يجعل الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال: «**وتفعلون؟**» قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: «إن ربك ﷻ يقرأ عليك السلام ويقول: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة»

قال: «**بل باب التوبة والرحمة**»[1].

قال ابن عباس: «فأنزل الله ﷻ هذه الآية ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 59].

لقد كان الهدف من تلك المطالب هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية وتآمر على الحق كي تبتعد القبائل العربية عنه ﷺ؛ لأنهم يطالبون بأمور يدركون أنها ليست من طبيعة هذه الدعوة ولهذا أصروا عليها، بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك فلن يؤمنوا أيضاً بهذه الدعوة. وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ واتخاذ ذلك ذريعة لمنع النَّاس عن اتباعه[2]، وسيتضح هذا في المحاولات القادمة.

5 ـ المساومة لاقتسام العبادة والزعامة. وهي محاولة لإخماد صوت الدعوة بالاتفاق معاً على حل وسط حتى يضمنوا بقاء مكانتهم أمام القبائل الأخرى، ومنعها أيضاً من الدخول في هذا الدين الجديد، وهي محاولة ماكرة لأن السير في ركاب الباطل خطوة واحدة معناه سقوط صاحب الحق في هاوية الانحراف، ونزلت سورة الكافرون «للمفاضلة الحاسمة بين عبادة وعبادة، ومنهج ومنهج، وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفياً بعد نفي، وجزماً بعد جزم، وتوكيداً بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل ولا اجتماع بين النور والظلام، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة أو مراوغة أو سياسة أو مصالح مشتركة أو مسائل داخلية... إلخ»[3].

6 ـ الاستعانة باليهود: لقد وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق وكان المعبر عن هذا العجز النضر بن الحارث الذي صرخ قائلاً: «يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد... فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[4].

---

(1) السيرة النبوية لابن كثير (1/ 483) إسناده جيد.
(2) الوفود في العهد المكي، ص 40 ـ 51.
(3) المصدر نفسه، ص 58 ـ 61.
(4) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص 40.

فقرروا بعد ذلك إرسال النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى اليهود لمعرفة حقيقة هذه الدعوة لا لكي يتبعوها، ولكن لإدراكهم أن رسول الله ﷺ لم يجب على مطالبهم التي طلبوها ـ ولمعرفتهم بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعاً وأصحاب الحق أينما كانوا ومعرفتهم بأخبار الأولين فقد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول ﷺ فيحققوا بذلك هدفهم الدعائي أمام القبائل العربية، ولم يدروا بسلوكهم هذا أنهم نقلوا أخبار الدعوة الإسلامية إلى خارج مكة مهما كان غرضهم وهدفهم، وبالرغم من فرحة قريش بالأمور التعجيزية التي أتوا بها من عند يهود إلا أن الله أحبط محاولتهم بالإجابة عليها كما جاء في سورة الكهف عن أهل الكهف وذي القرنين ثم عن الروح في سورة الإسراء، فأقيمت الحجة على الملأ من قريش وزعماء اليهود[1].

7 ـ الدعاية الإعلامية في المواسم ضد النبيّ ﷺ بأنه ساحر ليصرفوا النَّاس عنه.

8 ـ الإيذاء النفسي في شخص رسول الله ﷺ، وقد تمثل هذا الإيذاء بالإعراض والتكذيب واتهامه بالشعر والسحر والكهانة والجنون، وغمزه بكل عيب، والاستهزاء به وشتمه وإيذائه بالكلمات القبيحة ورسول الله ﷺ صابر محتسب[2]، وكذلك من أنواع الإيذاء النفسي إيذاء وتعذيب أصحابه وهو ينظر. وحثو التراب على رأسه وهو يصلي، ووضع الأوساخ والدماء على باب بيته والشوك في طريقه[3].

9 ـ الحصار الاقتصادي والاجتماعي، وقد تمثل هذا في محاربة تجار المسلمين كما ذكرنا من تهديد أبي جهل لمن أسلم من التجار بالإضافة إلى الحصار العام الذي تمّ في شعب أبي طالب، حيث تم حصار بني عبد المطلب وبني هاشم للضغط على أبي طالب وقومه للتخلي عن نصرة محمد ﷺ، وكانت بنود الاتفاقية «الصحيفة» التي كتبها زعماء قريش فيما بينهم على محاصرة بني هاشم وبني عبد المطلب مسلمهم وكافرهم على السواء:

أ ـ عدم الزواج منهم أو إليهم.

ب ـ وألا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم[4].

وكانت اتفاقية قاسية، عزموا على تنفيذ بنودها، ولذلك اتفقوا على تعليقها في جوف

(1) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص 41.
(2) الروض الأنف (2/ 33).
(3) المصدر نفسه (2/ 48، 103، 127، 128).
(4) المصدر نفسه (2/ 101).

الكعبة للزيادة في توثيقها وإن كانت هذه الوثيقة بهذه الكيفية تعطى ظلالاً عن عجز قريش واختلاف كلمتها ولهذا خافوا من أنهم إذا ما اتفقوا دون كتابة وتعليق في الكعبة قد يحصل نكوص عن ذلك ولهذا فعلوا تلك الصحيفة وتعاقدوا عليها[1]. وبالرغم من أن الحصار الاقتصادي في شعب أبي طالب كان يشمل بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم على سواء إلا أن هناك نوعاً آخر من الحصار الاقتصادي مارسه كفار قريش على بقية المسلمين فقد كان أبو لهب إذا ما قدمت القوافل التجارية إلى مكة يطوف الأسواق ويقول: يا معشر التجار غالوا على أصحاب محمد ﷺ... فأنا ضامن أن لا خسارة عليكم.. فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً حتى يرجع المسلم إلى أطفاله وهم يتصايحون من الجوع ليست في يديه شيء، ثم يذهب التجار إلى أبي لهب فيعوضهم في تجارتهم[2]، ومع هذا فلم يتراجع أحد منهم عن دينه بل زاده ذلك العذاب صبراً وتجلداً وعملاً في سبيل دينه[3].

1 ـ الإيذاء الجسدي:

فَقُوَى البغي والطغيان حينما تجد الثبات والصلابة عند المؤمنين قد بلغت مداها وأن الإيذاء النفسي والحصار الاقتصادي والاجتماعي، والعزل... إلخ لا تجدي أمام صلابة الإيمان في نفوس الفئة المؤمنة. حينما تصبح تلك السورة بارزة أمام قوى الطاغوت يطيش عقلها وتلجأ إلى البطش الجسدي مهما كلفها ذلك من عواقب[4].

ونلاحظ هنا ـ من خلال ما سبق ـ أن البطش قد وجه ضد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فتعرضوا للتنكيل والتعذيب وتولت كل قبيلة شأن المسلمين من أبنائها سواء من الأحرار أم من العبيد، أم من النساء أم من الرجال... ومنهم من قتل تحت التعذيب كسمية أم عمار رضي الله عنهما. ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع المثل في الصبر وقوة التحمل[5].

وكان ﷺ وهو في تلك المحن والشدائد والبلاء يربي أصحابه على:

ـ التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

---

(1) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص 43.
(2) انظر: الروض الأنف (2/ 127، 128).
(3) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص 44.
(4) تاريخ صدر الإسلام، ص 44.
(5) المصدر نفسه.

- التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

- التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الشرك والعصيان.

ومع هذا كله كان ﷺ يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث يشاء، وتزيل الحواجز والعقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله[1].

لقد فكر النبيّ ﷺ بالخروج بالدعوة من مكة لتحقيق أمور من أهمها:

1 - البحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها، حيث لا تطالهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

2 - البحث عن بيئة تقبل الدعوة، وتستجيب لها، في مقابل عنت القرشيين وكنودهم، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض، تحقيقاً لأمر الله بالتبليغ للعالمين[2]، وتمّ له ذلك ﷺ وهاجر إلى المدينة ودخل مرحلة التمكين.

لقد تعرض أصحاب رسول الله ﷺ لأشد أنواع التعذيب، وهكذا يتعرض الدعاة في كل وقت وحين، فإذا كان المشركون الأولون يعذبون أولياء الله بالرمضاء والنار - في بعض الأحيان - فإن تعذيب آلات الكهرباء الطويل الآن أشد، وإذا كان الكفار السابقون يصلبون أولياء الله على الجدران والأخشاب وفي جذوع النخل، فإن أعداء الله يصلبون أولياءه الآن على أعمدة الحديد المتصلة بتيار الكهرباء، وإذا كان أعداء الله يقلبون أولياء الله على حر الرمضاء ظهراً بربط أيديهم أو يجرونهم بالحبال، فإن أعداء الله الآن يسحبون أولياءه بالآلات السريعة كالسيارات في الشوارع ويدخلون الواحد منهم عجلة السيارة بعد أن يضموا رأسه مع رجليه ويديرونها بالآلات وهو مكشوف العورة، ويملؤون الأحواض بالماء الساخن في شدة الحر أيام الصيف ويقذفون فيها بالمؤمن مجرداً من نيابه ويبقى فيها الساعات حتى ينسلخ جلده، ويملؤونها في أيام الشتاء والبرد القارص بالماء البارد ويلقونه فيها كذلك ويضعون ولي الله في حجرة ضيقة فيها نومه وطعامه وشرابه وفضلاته ويجيعون الكلاب المدربة ويضعونها

(1) الغرباء الأولون، ص 146.

(2) المصدر نفسه، ص 168.

معه في حجرته لتنهش جسمه وتكثر من العواء والنباح على رأسه ويضربونه بالسياط حتى تسيل الدماء وقد تتجاوز دفعة الضرب في المرة الواحدة خمسمائة سوط ويتركونه حتى يتورم جسمه ثم يلهبونه بالسياط في مواضع الضرب السابقة ويسيل قيحه وينتن جسمه فلا يسمحون لطبيب يداوي جراحه ويأمرونه مع زملائه من أمثاله بالجري وهم في تلك الحال لمسافات طويلة ومن أظهر التعب ضربوه حتى يغمى عليه أو يموت وهكذا[1].

وهكذا تمر المحن والابتلاءات على الأفراد والجماعات لتصقل العاملين في ساحة العمل الإسلامي على مستوى الأفراد والجماعات، وتمضي هذه السُّنَّة في كافة الأزمنة والأمكنة إلى عصرنا الحاضر، ويتعرض الدعاة إلى البلاء والمحن ويمضون في طريقهم المرسوم باستعلاء إيماني عظيم لا يبالون غير نصرة دينهم ورفع كلمة الله في الأرض، وينشد شاديهم في داخل السجون ومن وراء القضبان وهو يرى أفواج رفاقه تشنق رقابهم كل يوم وينتظر نفس المصير فلا يتزعزع الإيمان وإنما يزداد صلابة وتشتاق النفس إلى خالقها ورفقة النبيين والصديقين والصالحين والشهداء، ويبين الشادي المؤمن أن الحرية هي حرية القلب الذي خلقت عبوديته لخالقه وإن كبله أعداء الله بالقيود وأحاطوه بأسوار السجون والمعتقلات فهو يقول:

أخي أنت حر وراء القضبان
أخي أنت حر بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً
فماذا يضيرك كيد العبيد

ولا يخشى هذا الداعية الرباني على نفسه من الموت والعذاب تحت سياط الجلادين إنما الخوف من أن يسأم من الجهاد ويترك الكفاح، فيطلق في إخوانه صرخته مذكراً لهم بواجب رفع الراية ومواساة المجاهدين وضحاياهم فيقول:

أخي هل تراك سئمت الكفاح
وألقيت عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح
ويرفع رايتها من جديد

(1) انظر: الجهاد في سبيل الله، للدكتور عبد الله القادر (2/ 215).

ويحث إخوانه بالاستمرار في طريق الدعوة والجهاد والحرص على رضا الله:

أخي فامض لا تلتفت للوراء

طريقك قد خضبته الدماء

ولا تلتفت ههنا أو هناك

ولا تتطلع لغير السماء[1]

إن طور البلاء لابد منه قبل التمكين وتخرج الدعوة والدعاة بعد هذا الطور أصلب عوداً وأقوى مما كانت عليه لتنطلق لتحطيم عروش الطغاة وتبدد الظلام لتبني حياة إسلامية صحيحة راشدة.

(1) انظر: المصدر السابق (2/ 223)، هذا الشادي هو سيد قطب ـ رحمه الله تعالى.

المبحث الثالث

مرحلة المغالبة

إن من أهم المراحل في العمل الإسلاميّ هي هذه المرحلة، حيث هي مرحلة التركيز والتخصيص لسد ثغرات العمل الإسلاميّ كله، من حيث الكم ومن حيث النوع ومن حيث الاستجابة لكل متطلبات الدعوة وأعبائها في كل مراحلها، كما أن هذه المرحلة يعقبها التمكين لدين الله بإذنه سبحانه وتعالى، إن أجمع تعريف لهذه المرحلة أنها مرحلة المؤمنين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأعدوا للعمل الإسلاميّ ما يحتاج إليه من حكمة وقوة، إنها مرحلة المجاهدين في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا[1].

إن أفراد هذه المرحلة اكتسبوا من المعارف والخبرات والتجارب والعلوم النافعة حتى وصلوا إلى النضج السليم، ولاشك أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية أولويات تقدم على غيرها، ومن أهم هذه الأولويات أن يكون على رأس هذه المرحلة فقهاء وعلماء قد بلغوا درجة النظر في الدين وفي معرفة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد لاحظت من خلال الدراسة التاريخية: أن العلماء الذين يقودون القادة والزعماء هم الذين يضعون الأسس السليمة المنهجية للتغيير الرباني وبناء الدول على أسس صحيحة، فلذلك لابد من إعطاء دور العلماء وأن يكونوا في طلائع كتائب الجهاد الشامل التي تسعى لتحكيم شرع الله، إن العلماء هم: هداة النَّاس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتي أمر الله، فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، يقول الرسول ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النَّاس**»[2].

---

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله (1/ 524).

(2) البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبيّ ﷺ: لا تزال طائفة.. (8/ 189) رقم 7311.

ومن الأولويات في هذه المرحلة:

1 ـ الاهتمام بالأفراد المتخصصين القادرين على سد ثغرات العمل الإسلاميّ في كل مجالاته، بمعنى أن يختار من أفراد هذه المرحلة مجموعات تتخصص في دراسة المجالات التي لابد منها في تكوين الدول ليصبحوا علماء متخصصين في كل مجالات الحياة الإنسانية، وتصبغ روح الشريعة عليها كلها، وعلى سبيل المثال، في مجال علم الاجتماع، وفي مجال علم السياسة، وفي مجال الاقتصاد، وفي مجال التربية؛ وفي مجال الإعلام؛ وفي مجال علوم الزراعة والمياه، وفي مجال علوم طبقات الأرض والتعدين، وفي مجال علوم الفضاء، وفي مجال علوم الصناعة والتقنية، وفي كل مجال يحتاج إليه، وفي مجال فقه الدعوة والحركة والتنظيم، وفي مجال فن القيادة والتخطيط، وفي مجال أحوال العالم الإسلاميّ واحتياجاته، وكل مجال علمي أو فن من هذه المجالات، يتفرع إلى عشرات التخصصات الدقيقة والأكثر دقة[1].

2 ـ تعميق الانتماء للدين الإسلاميّ وللدعوة إلى الله ويحرص العاملون أن يتمثلوا الإسلام العملي في سلوكهم وأخلاقهم بحيث يصبحون أعلاماً حية للإسلام ولدعوته، وكل ذلك طريقه عمق الانتماء إلى الإسلام، وعمق الاعتزاز به، ويحرص الداعية أن يكون واسع الأفق، عميق الفهم، متين الخلق قوي الجسم، مستوعباً لقضايا العالم الإسلاميّ المعاصر، قادراً على تحليل هذه القضايا، ومتصوراً حلاً أو حلولاً لها في موضوعية وواقعية وتجريد للحق، إن أفراد هذه المرحلة حري بهم أن يكونوا متجذرين في انتمائهم للإسلام، ولدعوته ويعمقوا ولاءهم لمنهج الرحمن ونظام الديان وشريعة الإسلام ويكونوا هم جنود هذه المرحلة من العمل والتنفيذ والممارسة والتطبيق لكل ما تعلموه في المراحل السابقة، مستمرون في أعمالهم، دون ملل أو تراخ، وأن يكونوا أصحاب عزيمة صادقة، وإصرار في بلوغ الهدف، مع التأني والصبر والإجادة والإحسان، مع عدم استعجال النصر من الله، لأن ذلك أمر متروك لله سبحانه، يجعله على يد من يشاء من عباده، ولكنه يقين سوف يتحقق ما داموا بالحق عاملين مجاهدين[2].

إن طبيعة مرحلة المغالبة، تختلف عن سواها من المراحل، ومجمل طبيعة هذه المرحلة يكمن في أنها: مرحلة الجهاد المتواصل، والصبر على الابتلاء، والإصرار على مواصلة

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله (1/ 525، 526).
(2) انظر: المصدر السابق (1/ 527).

السعي في الطريق، حتى تتحقق إحدى الحسنيين: النصر، والتمكين لدين الله في عباد الله أو الحصول على الشهادة في سبيل الله، كما لا بد في هذه المرحلة من كمال الطاعة ولا بد من الالتزام بتحقيق الأهداف المرسومة، ويمكننا القول بأن طبيعة هذه المرحلة تكمن في كلمة واحدة: الجهاد ونعني به: الجهاد بكل أنواعه: جهاد اللسان، وجهاد العمل في كل مجالاته، وجهاد قتال أعداء الله، وجهاد المرابطة في سبيل الله، وجهاد الاستعداد لكل معركة في سبيل الله، وجهاد لكل عمل يتطلبه الإسلام. ولا بد لكل فرد وصل إلى هذه المرحلة أن يكون جهده ووقته وماله في سبيل الله[1].

وفي هذه المرحلة تكون الجماعة الإسلامية القائمة على أمر الدعوة الإسلامية قد اقتفت سنة الأنبياء والرسل في دعوة الأمم فحرصت على غرس الإيمان في النفوس وتوطيد العقيدة في القلوب، ففي الحرص على هذا الأصل العظيم سعادة للناس في الدنيا والآخرة، يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «ظل القرآن المكي ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاماً كاملة يحدثه فيها عن قضية واحدة لا تتغير، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر. لقد كان يعالج القضية الأولى، والقضية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد، قضية العقيدة، ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة... ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء يقوم عليها من التعريفات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيان وأنها استقرت استقراراً متيناً ثابتاً في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسان التي قدر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتولى هي إنشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا الدين»[2].

إن الاهتمام بالجانب العقدي والمفهوم الإيماني وتربية الأمة عليه ينبغي أن يستمر استمرار الحياة الدنيا، فإنه مهما بلغ الإنسان من الإيمان فإنه لا يستغني عن التذكير به والازدياد منه، ولا بد من إعداد القاعدة الصلبة التي تلتحم مع الجماهير وتتحرك نحو تطبيق شرع الله والتمكين لدينه سبحانه وتعالى، قال سيد قطب رحمه الله وهو يقرر ضرورة إعداد هذه القاعدة: «لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج...» ثم بعد أن تكلم عن سنة الابتلاء قال: «فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة»[3].

(1) فقه الدعوة إلى الله (1/ 531، 532).
(2) معالم في الطريق، ص 20، 21.
(3) في ظلال القرآن (1/ 1577).

وأجمل ذلك في مكان آخر بقوله: «لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح»[1].

لابد من الاهتمام بتقوية الإيمان وتزكية الأخلاق الفاضلة وكثرة الطاعة لله ولرسوله، والبعد عن المعصية والتوعية الكاملة والفقه في الدين ومعرفة مشكلات العصر وحلها، والتدريب العملي على البذل والإنفاق وإيثار الدعوة الإسلامية بالنفس والنفيس والإخلاص الكامل والتجرد لله وحده، وهذا الإعداد مع صعوبته وطول مدته التي تحتاج إلى صبر وجلد خير من العجلة في جمع الجماهير، ذوى عواطف تبهج النفس وتنعشها، عواطف يظهر أصحابها الطاعة والحب والتفاني في سبيل العقيدة ولكن وقت الرخاء، أما وقت الشدة فإنها كالزبد الذي يذهب جفاء والهشيم الذي تذروه الرياح[2].

صفات الطائفة المنصورة:

إن بناء القاعدة الصلبة على أسس من منهج أهل السُّنَّة والجماعة يدخل ضمن الطائفة المنصورة التي تتحرك بهذا الدين على جميع الثغرات. **ومن صفات الطائفة المنصورة من خلال الأحاديث الصحيحة يتضح الآتي:**

أ ـ أنها على الحق:

فهي طائفة من هذه الأمة تشربت المنهج الرباني الذي هو «الحق» وما عداه الباطل، واستقرت على الالتزام به استقرار المتمكن الذي لا يتزحزح وهي طائفة متخصصة ب «خصائص الفرقة الناجية» أهل السُّنَّة والجماعة والتي تحرص أن تكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فهي متحققة من العلم الصحيح المبنى على الدليل الشرعي، ومن عمل القلب وعمل الجوارح المواطئ لهذا العلم.

وقد تعددت عبارات الأحاديث، وتنوعت في بيان أن هذه الطائفة تحمل الحق الذي جاء به محمد ﷺ وتلتزم به من غير تحريف ولا تبديل، فجاء الحديث بأنهم «على الحق».

وأنهم «على أمر الله».

وأنهم «على هذا الأمر».

وأنهم «على الدين».

---

(1) في ظلال القرآن (1/ 1618).

(2) المصدر السابق (1/ 1618).

وهذه الألفاظ تجتمع في الدلالة على استقامتهم على الدين الصحيح الذي بُعث به محمد ﷺ، وقد عبّر ﷺ عن تمسك الطائفة المنصورة بالحق، والدين، والأمر بلفظ: «على»، الدال على التمكن والاستقرار[1].

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتباعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما استحقت الذكر والنصر، لتمسكها بالحق الكامل حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

1 ـ الاستقامة في الاعتقاد وملازمة ما كان عليه النبيّ ﷺ وأصحابه ومجانبة البدع وأهلها، فهم أصحاب السُّنَّة الذين ليس لهم اسم يُعرفون به وينتمون إليه إلا السُّنَّة، لا جهمية ولا معتزلة، ولا غير ذلك من الأسماء الدالة على البدع والأهواء[2].

2 ـ الاستقامة في الهدي والسلوك الظاهر على المنهج النبوي الموروث عن الصحابة ﷺ والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

3 ـ الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحجة على العاملين.

4 ـ الاستقامة في الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية، واستجماع المقومات التي يستنزل المؤمنون بها نصر الله ولاشك أنهم إنما ينتصرون لملازمتهم للجادة المستقيمة ـ من جهة ـ ولبذلهم الجهد الواجب في تحصيل أسباب النصر ـ من جهة ثانية. وبذل الجهد في تحصيل تلك الأسباب هو ـ في الحقيقة ـ جزء من الاستقامة على الشريعة، إذ الشريعة تأمر بفعل الأسباب واتخاذ الوسائل المؤدية إلى النتائج ـ بإذن الله ـ فليس صحيحاً أن يقعد المسلم عن استخدام الوسائل المادية الممكنة، من الصناعة، والسلاح والتخطيط، والإدارة وغيرها، متوهماً أن النصر يجيء بدونها، لأن تحقيق ذلك هو من مقتضيات الاستقامة على أمر الله.

ب ـ أنها قائمة بأمر الله:

وهذه الخصيصة بارزة جداً في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم أمة قائمة بأمر الله، واسمهم «الطائفة المنصورة» في عدد من الأحاديث وقيامهم بأمر الله يعني:

---

(1) انظر: صفة الغرباء، لسلمان العودة، ص 166.

(2) انظر: الاعتصام للشاطبي (1/58)، والانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر، ص 35.

1 ـ أنهم تميزوا عن سائر النَّاس بحمل راية الدعوة إلى الله، وإلى دينه، وشرعه، وسنة نبيه ﷺ، والقيام على نشر السُّنَّة بين النَّاس بكل وسيلة ممكنة مشروعة، ودفع الشبهات عنها، وحمل النَّاس عليه ـ مهما أمكن ذلك ـ والرد على مخالفيها من الكفرة والمرتدين والمارقين والمنافقين والجاهلين.

2 ـ أنهم قائمون بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد، واللسان، والقلب، معارضون لكل انحراف يقع بين المسلمين، أيّاً كان نوعه: سياسياً أو اجتماعياً، أو اقتصادياً، أو علمياً، أو اعتقادياً، فهم «أولو البقية» الذين ينهون عن الفساد في الأرض وهم الناجون حتى يهلك الظالمون. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116].

جـ ـ أنها تقوم بواجب الجهاد والقتال في سبيل الله:

وقد جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنهم:

«يقاتلون على الحق»[1].

أو «يقاتلون على أمر الله»[2].

وهذا يبين أنها لم تقف عند حدِّ جهاد الكلمة، ببيان، والدعوة إليه بالحسنى، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المسلمين، بل تميزت ـ مع ذلك ـ بالقيام بواجب الجهاد الشرعي في سبيل الله، وقتال أعداء الله من الكفار والمنافقين وغيرهم.

وهذا يعني استمرار الجهاد والمواجهة العسكرية مع أعداء الله إلى يوم القيامة، لأن الطائفة القائمة به باقية إلى يوم القيامة[3].

والمقصود أن الجهاد لا ينقطع انقطاعاً دائماً مستمراً، بل لا يزال في الأمة طائفة منصورة تجاهد في سبيل الله أعداء الله، ولكن هذا لا يعارض ما وُجِد ويوجد في بعض الأمكنة وبعض الأزمنة من ترك الجهاد، كما أخبر به النبيّ ﷺ، وحذر منه، فوقع في الأمّة كما أخبر، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة**[4]، **وأخذتم أذناب**

(1) أبو داود، كتاب الجهاد، باب دوام الجهاد (3/ 11) رقم 2484.
(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «لا تزال..» (31/ 1524) رقم 176.
(3) انظر: صفة الغرباء، ص 177.
(4) العينة: هي أن يشتري من رجل سلعة بثمن معلوم مؤجل ثم يبيعها له بأقل من الثمن.

البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذُلاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

فقد تترك عامة الأمة الجهاد في سبيل الله، وتخلد إلى الأرض، وتشتغل بالزرع أو غيره من شؤون دنياها، وتلهو به عما أخرجت له من الجهاد وقتال أعداء الله، فيسلط الله عليها الذل والهوان، وحينئذ تكون مهمة الطائفة المنصورة: الجهاد في الجانبين الأولين: جانب الدعوة إلى الله وإلى رسوله، ونشر السُّنَّة، وحرب البدعة، وجانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إضافة إلى قيامها بالواجب في التهيئة للقتال، وحرب أعداء الله بالسلاح، وعملها على إزالة العوائق والعقبات التي تحول دون الجهاد، فإنه إذا وجب عليها القتال والحرب لأعداء الدين، فقد وجب عليها الاستعداد لهذه الحرب بكل وسيلة ممكنة، ووجب عليها السعي لإزالة الموانع الحائلة دون قيامها بالواجب، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وبجهود هذه الطائفة ترجع الأمة ـ عامّة ـ إلى الجهاد، وتخوض الغمرات إلى أعدائها، حتى ينصرها الله، ويعيد لها عزّتها ومجدها وكرامتها، إن الجهاد الذي بدأ في عهد الرسول ﷺ لا ينتهي حتى آخر الدهر، قبيل قيام الساعة، والطائفة التي أكرمها الله تعالى بحمل الراية جيلاً بعد جيل، ورعيلاً بعد رعيل، هي الطائفة المنصورة القائمة بأمر الله[2].

د ـ أنها المجددة للأمة أمر دينها:

إن التجديد لهذا الدين هو الخط المقابل للغربة، والمجددون هم الذين يدافعون غرابة الدين، ويدفعونها، ويحيون ما اندرس من الشرائع وهي بذلك تعمل على إحياء الدين، وتجديده، ودفع الغربة عنه وعن أهله، وتتضاعف مسؤولياتها وتعظم كلما ازداد الشر والفساد في الأمة، واستفحل وتضاعف، فـ «التجديد إنما يكون بعد الدروس وذاك هو غربة الإسلام»[3].

وكما وعد رسول الله ﷺ بطائفة منصورة ظاهرة قائمة بأمر الله إلى قيام الساعة، فقد وعد وعداً خاصاً مندرجاً في هذا الوعد العام، وهو البشارة ببعثة من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها**»[4].

---

(1) أبو داود، كتاب البيوع، باب النهي عن العينة (3/ 740) رقم 3462.
(2) انظر: صفة الغرباء، ص 181، 182.
(3) الفتاوى لابن تيمية (18/ 297).
(4) أبو داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (4/ 280) رقم 291 إسناده صحيح.

ولفظ «من» في الحديث يُطلق على الفرد، وعلى الجماعة، فيحتمل المعنى أن يكون المبعوث فرداً، ويحتمل أن يكون جماعة أو طائفة، فإن كان المجدد فرداً، فلابد أنه من الطائفة المنصورة، وهذا مما لا يحتاج إلى بيان وإن كانت مهمة التجديد موكولة إلى فئة، فهي الطائفة المنصورة ـ بلا ريب ـ وذلك لأن خصائص هذه الطائفة هي الخصائص التي يحتاج إليها في تجديد الدين لهذه الأمة. وهذا ـ أي: التجديد ـ قد يكون بفرد، وقد يكون بطائفة وكونه بطائفة أغلب وهو ما رجحه الحافظ ابن حجر[1] حيث قال: «لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة وهو متَّجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى، باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده، فالشافعي، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا، كل من كان متصفاً بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدّد أم لا»[2]. وهناك مجموعة من آراء الأئمة تلتقي حول هذا الرأي كابن الأثير الجزري[3]، وابن كثير وغيرهم.

ومن البديهي أن المجدِّد لهذا الدين ـ لو كان فرداً ـ لا يخرج من فراغ، ولا يستطيع بمفرده ـ بحال من الأحوال ـ أن يجدِّد الدين، كل الدين للأمة.

«إن من الواضح أن مثل هذا العمل الكبير لا يضطلع بمباشرة كل جوانبه فرد واحد، بل يحتاج إلى طائفة تتولى التجديد في كل جوانب الحياة الإنسانية، فيكون منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم رقاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل يكونوا متفرقين في أقطار الأرض[4].

هـ ـ أنها ظاهرة إلى قيام الساعة:

وقد وصفت الأحاديث النبوية الكريمة هذه الطائفة بكونها ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة، وكلمة «الظهور» تشتمل على عدة معان:

---

(1) هو أحمد بن علي بن محمد العسقلاني أبو الفضل (ت 852 هـ). انظر: الأعلام (1/ 178، 179).
(2) فتح الباري، كتاب الاعتصام، باب لا تزال طائفة (13/ 12) رقم 7312.
(3) هو أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير، توفي عام 606 هـ. انظر: جامع الأصول.
(4) انظر: صفة الغرباء، ص 187.

1 ـ بمعنى الوضوح والبيان، وعدم الاستتار، فهم معروفون بارزون مستعلون.

وهذا ـ في الجملة ـ وصف صحيح لهذه الطائفة، لأن تصديقها للدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد، وإقامة الحجة، يعني أنها ظاهرة، مشهورة، ولها مؤسساتها وأجهزتها ووسائلها المعلومة، وقيام هذه الطائفة بواجب البلاغ والدعوة، وحرب المنكر، وقتال الأعداء، يقتضي أن تكون ظاهرة غير مستترة، حريصة على التبليغ لصوت الحق لكل مسلم، بل ولكل إنسان وإن كان هذا لا يمنع أن يستخفي بعض أفرادها بإسلامهم، أو بدعوتهم لملابسات خاصة في مكان معين، وزمان معين، فالعبرة بالطائفة جملة، لا ببعض أجزائها، أو بعض أفرادها، والعبرة بالحال العام المستمر الثابت، لا بالحال المؤقت الطارئ.

2 ـ ثباتهم على ما هم عليه من الحق، والدين، والاستقامة، والقيام بأمر الله، وجهاد أعدائه، بحيث لا يثنيهم عن ذلك شيء من العقبات والعوائق والمثبِّطات، وغلبتهم بالحجة والبيان وسيطرة منطقهم على العقول والقلوب، لما يعتمد عليه الحق الصريح المقتبس من الكتاب والسُّنَّة، وهذا يدعو إلى اتباعهم وموافقتهم، فالحق غلاب، والباطل خلاب وكلما كانت هذه الطائفة أوسع علماً، وأعظم فهماً للوحي، وأكثر إدراكاً لثقافة عصرها، وأقدر على التعبير عن منهجها، كانت حجتها أغلب، وطريقتها أصوب[1].

3 ـ الظهور بمعنى الغلبة، وقد دلت النصوص على هذا المعنى أوضح دلالة، فقد وصفوا في الأحاديث بكونهم ظاهرين، ولاشك أن الظهور يأتي كثيراً بمعنى الغلبة والتمكن والعلو والظفر، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33].

وكما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: 14].

وقوله: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: 48].

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف: 20].

وقد أكد إرادة هذا المعنى مجيء روايات أخرى تكاد أن تكون صريحة في ذلك.

كقوله: «ظاهرين لعدوهم»[2].

وقوله: «ظاهرين على من ناوأهم»[3].

---

(1) انظر: صفة الغرباء، ص 192.

(2) مسلم، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: لا تزال طائفة (3/ 1524) رقم 176.

(3) أبو داود، كتاب الجهاد، باب دوام الجهاد (3/ 11) رقم 2484.

وقوله: «لعدوهم قاهرين»[1].

ولاشك أن هذا وعد رباني على لسان محمد ﷺ وليس يشك مسلم في ثبوته وتحققه ووقوعه، خاصة وأصل الحديث ثابت متواتر كما سبق، وهو يشمل الغلبة والقهر بالحجة، ويشتمل الغلبة المادية والنصر في القتال، ويجوز أن تكون معاني الظهور السابقة - كلها - واردة وصحيحة، فتكون الطائفة المنصورة ظاهرة معلنة غير مستترة، وظاهرة على الدين بالثبات عليه والتمكين منه، وظاهرة على عدوها بالحجَّة والبيان، وبالقوة والسِّنان[2].

و - أنها صابرة:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة 24].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: 60].

فقد خصَّ الله الطائفة المنصورة من الصبر بخصيصة ليست لغيرهم فهم في هذا الخضم العنيف في الصراع بين الحق والباطل يتسلحون بالصبر الجميل ويتحملون الشدائد والمصاعب من أذى الكافرين والمنافقين والفاسقين والمخالفين عن سمته وطريقه المستقيم، فلا تستطيع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم:

«لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم»[3].

«لا يضرهم من خذلهم»[4].

«ولا يبالون من خالفهم»[5].

وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى أن هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخذلين، ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين[6].

---

(1) انظر: الطبراني (الكبير) ترجمة أبي أمامة رقمها 736 (8/ 171).
(2) انظر: صفة الغرباء، ص 193، 194.
(3) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿إنما قولنا...﴾ (8/ 189).
(4) مسلم، كتاب الإمارة، باب قول النبيّ ﷺ: لا تزال طائفة (3/ 1523) رقم 170.
(5) رواه سعيد بن منصور، كتاب الجهاد، باب من قال الجهاد ماض، رقم 2376 وله طرق تقويه.
(6) انظر: صفة الغرباء، ص 205.

هذه أهم الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة، والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، فعلى الجماعات الإسلامية أن تعمل على تربية أتباعها على هذه الصفات الجميلة والتي هي من أسباب النصر والتمكين الرباني.

إن القيادات الإسلامية التي تنهج منهج أهل السُّنَّة والجماعة حريصة على صلة بعضها وخصوصاً من يصل منهم إلى مرحلة المغالبة، حيث لابد أنه يحتاج إلى إخوانه حتى يعينوه على تحقيق أهدافه.

إن تكالب الأعداء من أمم الكفر على أمتنا، مزّقها وحطم أخلاقها، وهتك أعراضها، وهؤلاء الأعداء قد استولوا على معظم بلاد المسلمين، ونهبوا ثرواتهم وخيراتهم، فهذه المصائب الجسام توجب على أهل السُّنَّة ومن اتصف بصفات الطائفة المنصورة، أن يتعارفوا على إخوانهم من بلدان شتى ويتعاونوا مع بعضهم في طريق العمل والدعوة والجهاد، فلا بد من تعارف وتعاون من يحملون هم الدعوة والجهاد من أهل السُّنَّة حتى تتوحد الجهود نحو تحقيق الأهداف.

ويأتي دور العلماء الربانيين والقادة المخلصين في تنسيق الجهود وتحقيق معنى الانتساب للطائفة المنصورة المجاهدة، بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وتعلم العلم الشرعي المبني على الدليل من الكتاب والسُّنَّة في مجال الاعتقاد والأحكام والسلوك، والاستعداد الدائم لتجاوز الأخطاء وتصحيحها، والتخلي عن كل ما ينافي حقيقة هذا الانتساب الشريف، من الآراء والأقوال والأخلاق وغيرها، وهذا لا يتم إلا في جو من الفرح والغبطة بالنقد الصحيح، وترك أسلوب التزكية المطلقة للأقوال والأعمال والأشخاص والجماعات، والسعي الدائم لتعديل المناهج والمسالك على وفق الحق الذي تقتضيه شريعة الله ويدل عليه النص من القرآن والسُّنَّة، ووضع المسائل والقضايا في موقعها الصحيح الذي تقتضيه الحكمة[1].

وعلى القيادة الصالحة التي تقود العمل الإسلاميّ في بلد ما ووصلت إلى مرحلة المغالبة أن تحرص على توثيق التعاون مع القائمين على أمر الدعوة في بلادهم وغيرها من الأقطار الإسلامية ولابد من تنسيق الجهود، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ولا تتناقض ولا تتعارض والتعاون واجب شرعي، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 2].

والتعاون ثمرة من ثمار التعارف بين العاملين في الدعوة الإسلامية ممن حرصوا أن يكونوا ضمن كتائب التغيير الإسلاميّ، وثمرة من توحيد منهج السير المنضبط بالدليل الشرعي من

(1) انظر: من وسائل دفع الغربة للشيخ سلمان العودة، ص 67.

الكتاب والسُّنَّة، وبذلك تجتمع القلوب وتزول أسباب الخلاف التي ينفذ منها الشيطان وجنوده من الأنس والجن لزرع الفرقة والشتات بين المسلمين ويكفل هذا وهذا بالتآزر والتعاون والتناصر، لتجتمع قدرات المسلمين وتتوحد في مواجهة المحن والشدائد المتمثلة في التحديات الكبيرة التي يزخر بها العصر، ولتتناوب فئاتها في القيام بفروض الكفاية التي اضطلعت بها، وشرفها الله لتحمل القيام بها من بين المسلمين، فتقوم كل فئة بما تعجز عنه الأخرى فالتعاون والتناصر يجعل الصف الإسلاميّ أقوى في إمكاناته وقدراته، وأقدر على الاستفادة من الفرص المتنوعة التي تختلف من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان وأكثر دقة في توزيع المهمات والواجبات وتوظيف الجهود والقدرات نحو الهدف المنشود[1].

فعلى الجماعة الإسلامية ـ التي تربت على منهج أهل السُّنَّة والجماعة أصولاً وفروعاً، عقيدة وأخلاقاً، فكراً وتصوراً، عبادة ومعاملة، وحرصت أن تتصف بصفات الطائفة المنصورة وجهزت كوادرها المتنوعة ووصلت إلى مرحلة المغالبة ـ أن تقود هذه المرحلة بكل دقة وإحكام، وتخطيط وإتقان مستعينة بالواحد الديان، وأن تستوعب الجانب العملي الحركي في الإسلام وأن تقود حركة الجهاد الشاملة وفق أحكام الشريعة.

وأن تحسن إنزال أنواع الجهاد في ميادينها لسد الثغرات المتنوعة، وأن هذه الأنواع في مجموعها متكاملة، يقود بعضها إلى بعض، و ل واحد مشروع لتحقيق الهدف الأسمى لدعوة الإسلام، وهو تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى: في الأفراد والجماعات والمجتمعات، وفي داخل النفس وخارجها[2].

غير أن كلا منها يتعامل مع صنف خاص من الأعداء الذين يصدون عن تحقيق ذلك الهدف، فيزيحه من الطريق أو يحد من فاعليته، والكل يلتقي عند جعل العبودية خالصة لله تعالى، ورفع كلمة الله سبحانه في الأرض، وجعلها هي العلياء، بأن تكون هي المرجع الوحيد للبشرية في جميع نشاطاتها، ومن هنا كان لكل نوع من تلك الأنواع أهميته الخاصة، وكانت حاجة المؤمنين إلى ممارسة كل منها حاجة ماسة.

والجماعة الإسلامية الواعية والتي تسعى أن يكون المجتمع إسلامياً وربانياً لابد أن تجاهد في الله حق جهاده، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: 78]، وحق الجهاد هو التصدي لكل عدو يقف أمام دعوة الله، وممارسة جميع الأنواع الجهادية بكل حكمة وعقل ورزانة، وتقدير للمصالح والمفاسد، ومعرفة تامة لمقاصد الشريعة والموازنة بين

(1) من وسائل دفع الغربة، ص 68.

(2) الجهاد ميادينه وأساليبه، للدكتور محمد نعيم ياسين، ص 235.

أفضل المصلحتين وأقل الضررين بحيث تسد كل الثغور، وشد المجال أمام كل عدو وهذه صفة من الصفات الربانية اللازم ظهورها في الصف المتحرك لتمكين شرع الله والذي يذب ويجاهد من أجل هذا الدين.

لقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والإرشادات الفقهية تبين فضل الجهاد وضرورته وأنواعه.

والواقع العملي يدلنا على أن أشكال الجهاد مرتبطة بعضها ببعض، فجهاد النفس هو في حقيقته أصل تلك الأنواع جميعاً، وهي متفرعة عنه ومعتمدة عليه، فهو بذرتها، وهو شرطها، وهو عدتها، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً عن جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبيّ ﷺ: «**المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[1]. كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج واصلاً له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً، لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج[2].

وأما جهاد الشيطان فهو ضروري للتمكن من جهاد النفس وجهاد أعداء الله في الخارج، لأن الشيطان عدو يثبط الإنسان عن جهاد نفسه وجهاد الكفار والمنافقين والفاسقين، ولا بد للعبد من جهاده والتغلب عليه إذا أراد أن يتغلب على شهوات نفسه، وعلى كل عدو يصد عن سبيل الله تعالى، يقول ابن القيم بياناً لهذا المعنى بعد أن بين أهمية جهاد النفس وجهاد أعداء الله في خارج الإنسان: «وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتهيات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجهاده، فكان جهاده هو الأصل وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: 6].

والأمر باتخاذه عدواً تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته..»[3].

وأما جهاد الكفار والمنافقين وأهل المنكر فهو مشتمل على جميع أنواع الجهاد، لأنه جهاد النفس على التضحية باللذة العاجلة في سبيل السعادة الأبدية، وهو في حقيقته مشتمل

(1) البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الدين (1/ 10) رقم 10.
(2) زاد المعاد (2/ 38).
(3) المصدر نفسه.

على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فهو مشتمل على محبة الله ﷻ والإخلاص له والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له سبحانه والصبر والزهد وغيرها[1]. وكذلك جهاد الشيطان الذي يزين القعود ويمني بالسلامة، إلا أنه من الجدير بالذكر أن هذا لا يعني تساوي الجهاد وأشكاله من حيث الأجر والفضل عند الله تعالى.

والمعيار في ذلك ـ كما أشارت إليه الآيات والأحاديث ـ هو مقدار التضحية التي يقدمها المؤمن في سبيل الله تعالى، فمن كان أشد تضحية كان أفضل عند الله ـ ﷻ ـ وأثقل في ميزانه سبحانه لدلالته على قوة الإيمان بالله، وشدة الثقة بما عنده، ولاشك في أن التضحية بالنفس هي أعلى أنواع التضحية وأكرمها عند الباري تبارك وتعالى، إذ أثمن ما يملك العبد نفسه، وهي أصل كل ثمين، ومرجع كل لذة في هذه الحياة الدنيا، فمن ضحى بها فقد بذل كل ما يملك، ولم يستبق لنفسه شيئاً، وإنما قدمه في سبيل ربه، فإن كانت نيته خالصة لله تعالى، كان أكرم الشهداء عند رب العباد، ولذلك قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء 95].

وقال ﷻ: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة: 19 ـ 20].

ولذلك فضل رسول الله ﷺ الجهاد بالنفس على الحج، وجعله بعد الإيمان[2]، ففي الصحيحين عن النبيّ ﷺ أنه سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله ورسوله، ثم جهاد في سبيله**». قيل: ثم ماذا؟ قال: «**ثم حج مبرور**»[3].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً مات مجاهداً، وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان**»[4].

---

(1) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية.

(2) فتح القدير للشوكاني (4/ 277).

(3) البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور (2/ 172) رقم 1519.

(4) مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرباط (1/ 1520) رقم 1913.

ولذلك أجمع العلماء على أن المقام في ثغور المسلمين أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة، لأن الرباط ـ في الواقع ـ نوع من التضحية بالنفس أو استعداد لها[1].

إن مرحلة المغالبة لابد لأفرادها أن يكونوا قد استوعبوا مفهوم الجهاد بعمومه وأن تكون كافة الكوادر في جميع المجالات مستعدة للتحرك نحو تولي أمور الحكم وتحكيم شرع الله تعالى، والتمكين لدينه.

إن حركة المسلمين في مرحلة المغالبة تهز عروش الطغاة، وكلما قطعت الدعوة مرحلة من مراحلها كلما ازداد فزع الظلمة واقتربت نهاية الأحكام الجاهلية.

إن سهام الدعاة موجهة إلى أسس تقوم عليها عروش الطغاة ومن أهم هذه الأسس التي تسعى الدعوة إلى نزعها:

1 ـ نزع مقاليد الحكم من أيدي الطغاة:

حتى تقف رغباتهم وأهواؤهم التي يمضونها بواسطة القوة والسلاح ويعذبون النَّاس بل يقتلونهم من أجل أهوائهم وكفرهم كما فعل فرعون مع السحرة قال تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾ [طه: 70 ـ 71].

فلو لم تكن مقاليد الحكم بيد فرعون ما كان ليقدم على هذا الفعل الشنيع وهكذا كل الفراعنة لولا أن القوة بأيديهم ما استطاعوا أن يفرضوا باطلهم ويمنعوا النَّاس من الحق.

2 ـ تحرير النَّاس من عبودية المناهج الكفرية وعبادة الحكام: الذين يضعون مناهج عقدية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية لتحقيق هدف واحد لهم، وهو إخضاع النَّاس عن طريق الترغيب والإغراء وعن طريق الترهيب والإيذاء، ويستعين الحكام في تحقيق هذه الأهداف الخبيثة بأصحاب النفوس المريضة الذين يبجلون الحكام ويسعون لمرضاتهم من أجل مال زائل وجاه خادع وحظوة مذمومة، ويحرص الحكام على هذه الطبقة الذليلة فيقدمون لهم ما يريدون من جاه ومال وسلطان قال، ابن تيمية ـ رحمه الله: «وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم فيبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر

(1) انظر: الجهاد: ميادينه وأساليبه، للدكتور محمد نعيم ياسين، ص 238.

رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم. والتحقيق أن كليهما فيه عبودية للآخر، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله، وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعبده الآخر»[1].

3 ـ **القضاء على القوانين الجائرة والأنظمة التي شركوها لتخدم أهواءهم**، والتي جعلوها بكيفية تبيح لهم ما يريدون وتحرم ما لا يشتهون، وتمكنهم من الاعتداء على النفوس والأعراض والأموال.

إن الطغاة لا يطيقون أن يقف أمام رغباتهم وأهوائهم أي قانون، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: 84 ـ 87].

4 ـ **كشف الحقائق للناس**، وبيان خداعهم للعوام وغشهم بقلب الحقائق، وبيان كذبهم في إظهار النصح والخوف على مصالح النَّاس من خطر الدعاة إلى الله في إقامة حكم الله في الأرض كما قال الله عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر: 26]، «يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى النَّاس ويغير رسومهم وعاداتهم وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مُذكراً، يعني واعظاً يشفق على النَّاس من موسى عليه السلام»[2].

وقال سيد ـ رحمه الله ـ: «ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي؟. إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح والطغيان على

(1) الفتاوى (1/ 189).

(2) تفسير ابن كثير (4/ 76).

توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين»[1].

5 ـ كشف خطط الطغاة في جعل النَّاس شيعاً وأحزاباً ودعوة النَّاس للاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4].

هذه أهم الأسس التي تقوم عليها عروش الطغاة في الأرض، وأي أساس منها فقد كان جديراً بتحطيم تلك العروش ولاسيما الأول منها والثاني[2].

ولذلك يهتم الدعاة إلى الله في كل مراحل دعوتهم بتوجيه السهام إلى تلك الأسس وخصوصاً في مرحلة المغالبة حيث تنشط كتائب المجاهدين بتوجيه الضربات المسددة إلى تلك الأسس الطاغوتية وبعد تدميرها يصل الدعاة بإذن الله ـ تعالى ـ بدعوتهم إلى مرحلة التمكين.

«وفي هذه المرحلة المهمة من مراحل الدعوة يسعى أفراد الجماعة الإسلامية العاملة بكل إخلاص وصدق على تنفيذ مخططات دعوتهم وتحقيق أهدافهم، والدعوة في هذا الطور جهاد وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولابد أن نهتم بالفرد اهتمامنا بالجماعة ونهتم بالقاعدة اهتمامنا بالقيادة حرصاً على بناء الصفوف بناء إسلامياً صحيحاً. إن مراحل الدعوة التي تسبق مرحلة التمكين متداخلة فيما بينها فبمقدار نضج الجماعة في مرحلة التعريف والإعداد والمغالبة، تكون الأمور سائرة في الطريق الصحيح، وبمقدار ما يكون التعريف صحيحاً يكون الإعداد أسهل، وبمقدار ما يكون الإعداد صحيحاً تكون مرحلة المغالبة أحكم وأقوى. ومن ثم فإن النضج في هذه القضايا بشكل عام هو مظهر النضج العملي والنظري في الجماعة، بقدر ما توجد عند الجماعة أجهزة مختصة ناضجة في كل قضية من هذه القضايا يكون سيرنا قد أخذ مسراه الكامل»[3].

وهناك من يسمي مرحلة المغالبة بمرحلة التنفيذ، ولا مشاحة في الاصطلاح ويقول حسن البنا ـ رحمه الله ـ في هذه المرحلة: «[مرحلة] التنفيذ، والدعوة في هذا الطور جهاد لا هوادة معه وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون. ولا يكفل النجاح في هذا الطور إلا كمال الطاعة»[4].

---

(1) في ظلال القرآن (5/3078).
(2) انظر: الجهاد في سبيل الله (2/ 23).
(3) الدعوة إلى الإسلام، لحمن أدهم جرار، ص 121.
(4) آفاق التعلم، لسعيد حوى، ص 76.

وقال: «ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج وكثيراً ما تسير هذه المراحل الثلاث ـ أي التعريف والتكوين والتنفيذ ـ جنباً إلى جنب، نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينهما جميعاً، فالداعي يدعو، وهو في نفس الوقت يتخير ويربّي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك. ولكن لا شك في أن الغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عموم الدعاية، وكثرة الأنصار ومتانة التكوين»[1] ومن كلامه نفهم أن التنفيذ عنده نوعان: تنفيذ يومي، وتنفيذ شامل، وأن التنفيذ اليومي مرتبط بموضوع العمل المتواصل المكافئ. وأما التنفيذ الشامل فيرتبط بتحقيق الأهداف الكبرى[2].

(1) آفاق التعلّم، ص 76.
(2) المصدر السابق، ص 76.

المبحث الرابع

مرحلة التمكين

إن مرحلة التمكين هي ذروة العمل الإسلاميّ المنظم، وهي تمثل الثمرة الناضجة، إذا مثلت المراحل التي سبقتها التربة الصالحة والبذرة الصالحة، والتعهد والرعاية وأن الجهد الذي أوصل إلى هذه المرحلة كله من توفيق الله، ويستطيع أن يلمس المؤمن أثر توفيق الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الوصول إلى مرحلة التمكين لدينه في الأرض في دراسته القرآنية المتأنية، أو في نظرته التاريخية المستوعبة للتاريخ الإسلاميّ المجيد، ومرحلة التمكين في الدعوة إلى الله تعني أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يمكن لدينه في الأرض عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وأن هذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان، ويعقبه أمن بعد خوف، كما أن الوصول إلى التمكين يكون بعد تحقيق شروطه من إيمان وعمل صالح، وتحقيق العبودية، ومحاربة الشرك، وتقوى الله، كما أن لاستمراره شروطاً منها: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ، وهذه الثلاثة هي إجمال للإسلام كله، فالصلاة عماد الدين وهي دليل الإسلام وعلامته، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تراحم وتكافل، ودفع لحاجات المحتاجين الذين حدد الله سبحانه أنواعهم في آية ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: 60]، كما هي طهارة لقلب المزكي، وطهارة لماله، وطاعة الرسول ﷺ هي الالتزام بكل ما أمر والانتهاء عن كل ما نهى وذلك الإسلام كله وما ذكرته يوضحه قول الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: 55 ـ 56]. وستظل الطاعة للرسول ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مصاحبة للتمكين لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وفى هذه الآية النص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من صميم ما أمر الرسول ﷺ به[1].

إن القرآن الكريم إذا تدبره المؤمنون وتفقهوا فيه رأوا حكماً وسنناً تعين على من أخذ بها للوصول إلى غايته النبيلة، ولا شك أن مرحلة التمكين وإن كانت قمة المراحل، إلا أنها ليست آخر المراحل، فبعدها استمرار التمكين والمحافظة عليه، وإن من وراء التمكين لأموراً عظيمة وأهوالاً جسيمة ومسؤوليات كبرى أمام التحديات الضخمة والأعداء المتكالبين، ولا بد من استمرار الدعاة إلى الله بواجبات مراحل التعريف والإعداد والمغالبة والتمكين إلى قيام الساعة، ويوم يعدل الدعاة عن هذا العمل الموازي لمرحلة التمكين، فعندئذ يحدث التراجع والانتكاس، وتنشأ الأجيال الجديدة، فلا تجد من يعرّفها، ولا من يربّيها ولا من يفقهها ويعلمها ويقودها.

إن بعض النَّاس قد يرون هذه المرحلة بعيدة المنال.

وإن بعضهم ليراها مستحيلة التحقيق.

وإن بعضهم ليراها قريبة، قريبة جداً.

أما الذين يرونها بعيدة المنال فهم على صواب، طالما بقي المسلمون غير محققين لشروط التمكين، لأن التمكين لدين الله في الأرض حقيقة قرآنية ثابتة إذا توفرت لها شروطها[2].

إن التمكين لدين الله في الأرض مطلب عزيز دعا إليه الدين، وعمل صالح يؤجر عليه فاعله أعظم الثواب، وليس العمل لتمكين دين الله في الأرض عسيراً، أو فوق مستوى طاقة المسلمين؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها، بل ممكن وفي مقدور العاملين من أجل الإسلام، ولكونه ممكناً فقد وعد الله تعالى به المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

إن التمكين لدين الله في الأرض إرادة إلهية كي يظهر هذا الدين الخاتم على الدين كله يوماً من الأيام، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ [الصف: 9]. وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يقيموا هذا الشرع، أي يجعلوه قائماً، دائماً مستمراً محفوظاً مستقراً، قال الله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ

(1) انظر: فقه الدعوة إلى الله (2/ 715).

(2) انظر: فقه الدعوة إلى الله (2/ 716).

مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: 13].

إن التمكين لدين الله هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام:

الدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها.

والحركة، وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال.

والتنظيم، وما يستهدفه في الدعوة والحركة.

والتربية بكل أنواعها وأهدافها ووسائلها.

وعلى العاملين لدين الله أن يبينوا لجماهير الأمة العريضة أهمية تحقيق هذا الهدف النبيل[1].

إن النبيّ ﷺ سار بخطوات ثابتة نحو تحقيق الأهداف، فكانت مسيرته تسير جنباً إلى جنب في بناء العقيدة وتطهير النفوس من أمراضها، وتربيتها بالأخلاق الفاضلة مع الاهتمام بالجوانب الحركية، والتخطيطية والسياسية والإعلامية والجهادية وبناء دولة تحكم شرع الله تعالى وتسعى لتمكين دينه، فمنذ دخوله المدينة شرع ﷺ لتحقيق الأهداف التي هاجر من أجلها، ولذلك رأى من الضروري واللازم إنشاء «دولة إسلامية» على قواعد متينة وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة بناء المسجد الجامع، ثم أصدر الوثيقة للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة مع اليهود، ولم يمض الوقت طويلاً حتى شكل جيشاً إسلامياً مجاهداً لحماية الدولة والسعي على تحقيق أهدافها، لقد قدّر رسول الله ﷺ ظرفه وزمانه ومكانه واستطاع أن يقود أصحابه نحو التمكين معتمداً على الله تعالى وشارعاً في الأخذ بالأسباب الأمنية، والتربوية، والسياسية، والإعلامية والاقتصادية، والعسكرية وترك لنا معالم نيرة في مغازيه الميمونة، ودروساً عظيمة في كيفية تحقيق النصر على الأعداء والتمكين لدين الله تعالى، فبدأ بالسرايا، فحققت أهدافها، ومضى يحاصر قوى البغي والكفر والضلال حتى فتحت مكة ومن ثم وحدت جزيرة العرب، وأثناء ذلك كان يوجه الضربات المحكمة إلى الوثنية في كل مكان وإلى اليهود الذين نقضوا العهود وإلى ملوك الأرض بدعوتهم للإسلام، وتم الفتح الأكبر بفتح مكة الذي ترتبت عليه نتائج من أهمها:

---

(1) انظر: فقه المسؤولية للدكتور علي عبد الحليم، ص 358.

1 ـ دخول مكة تحت نفوذ المسلمين وزوال دولة الكفر، وانطلقت كتائب الإسلام بعد ذلك لتحطيم بعض الجيوب في حنين والطائف ومن ثم إلى العالم أجمع.

2 ـ تطهير الكعبة من الأصنام وإنهاء الوثنية في مكة بعد أن دمرت أصنام القلوب وأصلحت العقائد الفاسدة والتصورات المنحرفة.

3 ـ استخدم النبيّ ﷺ أسلوب العفو عند المقدرة فأعلن العفو العام وأحسن إلى أهل مكة مما كان سبباً في دخول كثير من زعمائهم الإسلام وتمكن الإيمان من قلوبهم من أمثال عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية.

4 ـ أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، وتحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبهذا برزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله كي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه[1].

5 ـ تمكين الله للمؤمنين الصادقين بعدما ضحوا بالغالي والنفيس وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذناً للصلاة بعد أن عذب في بطحاء مكة وهو يردد: أحد أحد.. في أغلاله وحديده ويجرونه الصبيان ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان.

لقد قام النبيّ ﷺ بتبليغ الأمانة، وأداء الرسالة ولحق بالرفيق الأعلى فجزاه الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء، وجاء الخلفاء الراشدون ـ رضوان الله عليهم ـ فتسلموا الراية، وساروا والمسلمون معهم على درب نبيهم ﷺ، ما غيروا وما بدلوا، بل ثبتوا على دينهم واندفعوا في مشارق الأرض ومغاربها يبلغون دعوة الله إلى البشرية، فهدى الله بهم من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام.

وكانت فترة الخلافة الراشدة التي ما تجاوزت ثلاثين عاماً قصيرة في عمر الزمن ولكنها في ميزان القيم أثقل من عمر إمبراطورية ظلت قائمة في الأرض عشرة قرون، فقد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى قمم صعدتها البشرية في تاريخها كله[2].

---

(1) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية، ص 129.

(2) انظر: حول التفسير الإسلاميّ للتاريخ، ص 218.

وكان التمكين في هذه المرحلة في ذروته التي لم تصل إليها الأمة في أي وقت آخر. كما كان شاملاً، فكان يشمل تمكين الدين والشعائر، وكان يشمل تمكين الدنيا، والسيادة الإسلامية براً وبحراً، سياسياً، واقتصادياً، وعلمياً.

ولقد سعدت الأمة الإسلامية ردحاً كبيراً من الزمان وفتح الله عليها بركات السماء والأرض.

وانتهت الخلافة الراشدة بتنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عن الجميع ـ عام 41 هـ. وبدأت في تاريخ الأمة الإسلامية مرحلة جديدة.

وفي هذه المرحلة لم تستقر حياة الأمة الإسلامية في كل جوانبها ـ على الأفق الأعلى الذي كان وقت حياة الرسول ﷺ، وخلفائه الراشدين، ولكنها ظلت مع ذلك عالية بالنسبة لكل ما عرفته الأرض من نظم وقيم وحضارات[1] «فليس صحيحاً ما اندس في أوهام الكثيرين من أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الرسول ﷺ، والخلفاء الراشدين. الصحيح ـ فقط ـ أن الفترة المثالية قد انتهت وبدأت فترة عادية من تاريخ الإسلام»[2].

ومع بداية الحكم الأموي، بدأت مرحلة الملك العضوض بنظامه الوراثي، ومظالمه، وبدأ أول كسر في المبادئ الإسلامية في سياسة الحكم، وسياسة المال.. رافق ذلك التخلي التدريجي من مجموع الأمة عن مراقبة أعمال الحكام، وانصرافها التدريجي إلى أمورها الخاصة[3].

وعلى الرغم من هذا فقد كان حجم الانحراف على عهد الأمويين محدوداً على أي حال، وإن بدا مجسماً غليظاً حين يقاس بعهد الذروة (العهد النبوي، والخلافة الراشدة) الذي يبدو كل شيء صغير حين يقاس إليه. فقد كانت الأمة على عقيدتها الصحيحة، وأخلاقها المتينة، فاتسعت الفتوحات الإسلامية حتى وصل المسلمون إلى أبواب القسطنطينية، وامتدت دعوة الإسلام إلى الهند شرقاً، وإلى الشمال الإفريقي غرباً وقويت دولة الإسلام، حتى غدت قوة يرهبها أعداؤها، ويعملون لها ألف حساب[4]. ثم جاء العباسيون، وركبوا الخط الذي بدأه الأمويون، وزادت فجوة الانحراف في عهدهم، وأضيف إليها انحرافات من نوع جديد، فقد

(1) انظر: هل نحن مسلمون لمحمد قطب، ص 100.
(2) المصدر نفسه، ص 101.
(3) انظر: واقعنا المعاصر لمحمد قطب، ص 117 وما بعدها.
(4) المصدر نفسه، ص 124.

بقى الملك الوراثي العضوض، وزادت سوأته حين جعلوه بالدور ـ حتى ولو جاء الدور على صبي لا يتجاوز الثانية عشرة ـ مما أثّر على قوة الدولة الإسلامية، فضلاً عما جرى من المؤامرات الرهيبة من أجل تولي الملك. ووصل العنف السياسي مداه حتى وصل إلى مذابح بشعة لا يتصور حصولها من مسلمين، وأما السرف في بيت المال فلقد كان الخليفة العباسي لا يجد حرجاً أن يعطي الشاعر لقاء أبيات في مدحه مائة ألف من بيت مال المسلمين. هذا غير صور الانحرافات الأخرى التي ليس هذا مجال حصرها، وأما مجموع الأمة فقد صارت ترى هذا العبث ولا تحرك ساكناً[1].

وكان طبيعياً أن تنهار الدولة العباسية من وطأة هذه الانحرافات مجتمعة، وجاء الانهيار تحقيقاً لسنن الله تعالى في الحياة البشرية. ودخل التتار بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية عام 656 هـ، فذبحوا الخليفة المعتصم، وذبحوا المسلمين، وأحرقوا كتب العلم التي كانت تعمر بها بغداد، وألقي معظمها في نهر دجلة، وكانت تضم أعظم تراث العالم في ماضيه وفي حاضره[2].

وقد أجمع المؤرخون على أن السبب في هذه النكبة هو الغفلة والترف، والاستهانة بتعاليم الإسلام. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

وانهارت كذلك الدولة الإسلامية في الغرب، حيث استولى الصليبيون على الأندلس، وطردوا المسلمين منها بوحشية بالغة، وانمحى الوجود الإسلاميّ من تلك البقعة من الأرض التي كانت مركزاً للعلم والحضارة ردحاً كبيراً من الزمان[3].

وعلى الرغم من انهيار الدولة العباسية، إلا أن الأمة الإسلامية كانت ما زالت بخير كثير على الرغم من كل عناصر الفساد التي تسربت خلال الحكم العباسي، ولم يكن انهيار الدولة العباسية هو نهاية الأمة الإسلامية، فقد برزت إلى الوجود دولة إسلامية جديدة فتية، وهي الدولة العثمانية، والتي بقيت ممكنة في الأرض زهاء خمسة قرون استطاعت خلالها أن تحفظ كيان المسلمين وأن تحميهم من غارات الصليبيين المتتالية، بل وتوغلت في أوربا الصليبية، وفتحت للإسلام أراضي وقلوباً، فدخل النَّاس في الإسلام بعشرات الملايين، كما منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام.. وغير ذلك الكثير.

---

(1) انظر: واقعنا المعاصر لمحمد قطب، ص 124.

(2) البداية والنهاية (7/ 183).

(3) انظر: واقعنا المعاصر، ص 138.

ولكن هذا وغيره لا ينفي وجود انحرافات كثيرة، سواء في الدولة، أو في حياة الأمة في ظل الدولة، وقد آتت هذه الانحرافات ثمارها السيئة على مدى الأيام[1].

فكان الوالي في آخر عهد الدولة العثمانية على أي قطر يتولى لفترة محدودة ثم يعزل. فكان يجعل من فترة ولايته فرصة لجمع ثروة من المال تكفيه مدى الحياة.

ـ وأصاب الدولة العثمانية في آخر أيامها الجمود والتخلف في أرجائها.

ـ وتسلل الأعداء إلى كيان الدولة وشرعوا في نخرها، ودخلت الأيدي الأجنبية وكانت بدايتها المشؤومة في عهد السلطان سليمان، والذي اشتهر باسم: سليمان القانوني[2].

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كانت الأمة قد تخلت عنه بالنسبة لحكامها منذ زمن بعيد، ولم يكن من المتوقع أن تعود إليه في الجو العسكري الذي قامت فيه الدولة العثمانية.

ـ وانشغل المسلمون عن دينهم الصحيح ببدع، وخرافات، ومعاص، وران عليهم جو التواكل والقعود عن الأخذ بالأسباب.

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن الإسلام ذاته في نفوسهم موضع نقاش لا بوصفه عقيدة، ولا بوصفه منهجاً للحكم. بل ظل حياً محفوظاً من التحريف والتبديل. وظلت مشاعل الإصلاح متسلسلة، بعضها من بعض لا تطفئها العواصف[3].

ودخل العالم مرحلة جديدة من تاريخه مع بداية القرن السابع عشر الميلادي حيث شن الغرب النصراني حروبه على أنحاء الأمة الإسلامية. وقد سماها بعض الباحثين: «الحملات الصليبية الأخيرة»[4].

وفي هذه المرة كان الموقف قد تغير كثيراً عن ذي قبل، فقد انحرف المسلمون انحرافاً شديداً عن حقيقة الإسلام، سواء في التصور أو السلوك. وفسدت المفاهيم لدى الأمة الإسلامية:

ـ ففسد مفهوم العقيدة، وانحصر في مجرد النطق بالشهادتين دون النظر إلى العمل، وتبع ذلك التواكل المقيت، والسلبية، والوهن، والعجز.

ـ وفسد مفهوم العبادة الشامل، فانحصر في شعائر التعبد المحدودة.

---

(1) واقعنا المعاصر، ص 908.
(2) تولى الحكم من سنة 1520 م ـ 1566 م.
(3) انظر: واقعنا المعاصر، ص 152.
(4) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 19.

ـ وفسد كذلك مفهوم العمل الصالح، فانحصر في مجرد الركعات والتسبيحات، والأوراد.

ـ وتخلف المسلمون كثيراً في مجالات الحياة، بعد أن عجزوا عن الأخذ بأسباب التقدم.

ـ كما تقطعت أواصر الإخاء بين الأمة الإسلامية، فضعفت قوتهم، وذهبت هيبتهم[1].

وقد ظلت هذه العوامل الرهيبة وغيرها تساور العالم الإسلاميّ، وتهدده، وتسللت إلى قواعده في إصرار، ووراءها جميع قوى العالم الجاهلي، ولكنها لم تبلغ أن تحطمه من أساسه. ولكنها مع تطاول الزمان، ومع التجمع والترصد واستمرار ذلك ظلت تنتقص منه شيئاً فشيئاً، وتنحرف به عن أصوله رويداً حتى أثخته فعلاً، وهددته تهديداً خطيراً[2].

لقد تجمعت انحرافات القرون الطويلة، وتفاعلت بعضها مع بعض، فأدت في النهاية إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية، وانهيارها من الذروة السامقة إلى الهوة السحيقة[3].

وحين جاءت الحروب الصليبية الأخيرة، والمسلمون على هذا الوضع، كان الاحتمال الأكبر أن ينهاروا، ويسلموا أنفسهم للضياع. وسقط العالم الإسلاميّ فريسة للاحتلال الأجنبي، وتقطعت أوصاله بين براثن المغيرين.

ولا يعني هذا ـ بطبيعة الحال ـ أن الأمة قد خربت، ولا أن الساحة قد خلت من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكننا حين نطلق ما نطلق من تعميمات نقصد بذلك الصورة الغالبة، والصورة الغالبة هي التي تقرر الموقف العملي في الحقيقة، وليست القلة المتميزة مهما يكن لها من تميز، إلا أن يكون في أيديها مقاليد الأمور[4]. ويحفظ التاريخ للمسلمين كثيراً من أدوار البطولة في جهاد المحتلين لكنها كانت بطولات المنهزم، يضرب آخر ضرباته قبل الاستسلام، فقد كانت العقيدة قد توارت خلف الركام، فكان حقاً على النَّاس أن ينتهوا إلى الهزيمة والاستسلام[5].

نعم حدث هذا وكان لابد أن يحدث، لأن المسلمين فقدوا أسباب التمكين في الأرض، فعصفت بهم الرياح الهوجاء، وأزالتهم من مكان الريادة؛ لتلقي بهم في حضيض التخلف والتبعية ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] لقد مرت الأمة الإسلامية بثلاث فترات نوعية:

---

(1) انظر: واقعنا المعاصر، ص 152.

(2) انظر: هذا الدين لسيد قطب، ص 39.

(3) انظر: واقعنا المعاصر، ص 162، 163.

(4) المصدر نفسه، ص 163.

(5) انظر: واقعنا المعاصر، ص 10.

1 ـ فترة التطبيق الفائق للإسلام، وما صاحبها من تمكين فائق.

2 ـ فترة التطبيق العادي للإسلام، وما صاحبها من التمكين العادي.

3 ـ فترة الانحسار وتزايد البعد عن حقيقة الإسلام، وما صاحبها من زوال التمكين وغلبة الأعداء[1].

لقد كان لأسباب زوال التمكين عن الأمة عوامل عديدة منها:

1 ـ انحراف كثير من المسلمين عن الفهم الصحيح للإسلام، وانصرافهم عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات.

2 ـ إهمال كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والخروج عن الإسلام في نظام الحياة.

3 ـ تفرق المسلمين، واحتدام الخلافات السياسية والعصبية، والدينية، في صفوف الأمة الإسلامية.

4 ـ ضعف القيادة الإسلامية، واستغلال الرياسة لتحقيق الأهواء والمصالح الشخصية بعيداً عن مصلحة الإسلام والمسلمين.

5 ـ موت روح الجهاد، وضعف أدواته.

6 ـ التخلي عن الأخذ بأسباب القوة الحسية.

7 ـ تخلي الأمة الإسلامية عن القيام برسالتها حق القيام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله.

8 ـ الجمود والتخلي عن الاجتهاد.

9 ـ إهمال العلوم العلمية النافعة، والانشغال بفلسفات عقيمة، وعلوم سقيمة.

10 ـ انتشار الأدواء الخلقية والاجتماعية.

11 ـ تصدع بناء الفرد المسلم، والبيت المسلم، والمجتمع المسلم[2].

وهكذا صارت الأمة بعد أن زال عنها التمكين إلى الأزمة الحالية، والتي لا شبيه لها على مدار التاريخ، وهي أزمة لا يستطيع القلم أن يصفها، أو يحدد معالمها، وإنما ينطق بها واقع الأمة المرير.

---

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 21.

(2) انظر: مجموعة الرسائل، ص 131، 132، ومجلة الوعي الكويتية، عدد ربيع الآخر 1414 هـ بتصرف.

المبحث الخامس

الحركات الإسلامية ودورها في العودة إلى التمكين

بدأت بشائر العودة إلى التمكين ومظاهره مع الحركات الإسلامية منذ القرنين الماضيين وتوارثت الأجيال الحاضرة تلك التجارب التي تركت لنا معالم في فقه التمكين ومن أهم هذه الحركات:

أولاً: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة 1115 هـ، 1703 م في بلدة العيينة الواقعة شمال الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلومتراً، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب[1].

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغ وتميز، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وتتلمذ على كتب ابن تيمية في الفقه والعقائد والرأي وأعجب بها أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم، وابن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفي[2].

ورحل في طلب العلم إلى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء. وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر بآرائه في العراق ثم رجع بعد ذلك إلى نجد.

أ ـ إعلان دعوته:

وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد بدأ دعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره

---

(1) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد عبد الوهاب، لأحمد القطان، ص 35.

(2) المصدر نفسه، ص 36.

وأنواعه وأشكاله وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء في حريملاء وانتقل بعد ذلك إلى بلدته العيينة وتلقاه أميرها بالترحيب وشجعه على أمر الدعوة، فأقام الشرع ونفذ الحدود، وهدم القباب، ولم يستمر في حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الأحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فخرج ماشياً على الأقدام إلى الدرعية.

ب ـ تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قدم ماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد، وكان هذا التحالف على أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ واستمر على هذا الحال يعلم النَّاس ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو إلى إزالة المنكر وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده[1]. وظلت الدعوة مسالمة متأنية، تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ دعوته للقاصي والداني، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة يرد عليها بالمؤامرات، فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها[2]

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجموع المجاهدين من الدرعية إلى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها في الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة النَّاس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود، فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكين بعد جهاد طويل[3]. وقد كان له نظر سياسي ثاقب، وخبرة واسعة في أمور الحرب والسياسة، ومما يذكر أنه كان يشرف بنفسه على إعداد المجاهدين وتحضير الكتائب وتسيير المقاتلين[4].

واستمرت الحروب بين أنصار الدعوة وأعدائها سنين عديدة، وكان النصر حليف أصحاب

(1) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ص 45، 46.
(2) انظر: استمرارية الدعوة لمحمد السيد الوكيل (3/ 293).
(3) انظر: إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب، ص 53.
(4) المصدر نفسه، ص 78.

الدعوة في أغلب المواقف، وكانت القرى تسقط واحدة تلو الأخرى، وفي عام 1178 هـ/ 1773 م فتحت الرياض بقيادة الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود، وفر منها حاكمها السابق دهام بن دواس، وكان حاكماً ظالماً غشوماً، اعتدى على الدعاة مراراً، ونقض العهود التي أبرمها مع القائمين على الدعوة، وبعد فتح الرياض اتسعت رقعة الأرض التي تخضع للدعوة، ودخل كثير من النَّاس في الدعوة مختارين، فقد أزيلت العوائق التي كانت تصدهم عنها، وانفرجت الأمور بعد ضيق، وجاء اليسر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهدأت الأحوال، وأمن النَّاس في ظل الدولة الإسلامية الفتية، التي حرم النَّاس من نعمة الأمن والاستقرار مدة غيابها[1].

لقد أخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالسنن لتمكين دين الله تعالى، فنلاحظ في دعوته أخذه بشروط التمكين ودعوة النَّاس وتربيتهم عليها من الإيمان بالله، والعمل الصالح، وتحقيق العبودية ومحاربة الشرك، وتقوى الله تعالى، وأخذه بأسباب التمكين، ويظهر حرصه على الأخذ بالأسباب في تحالفه مع الأمير محمد بن سعود الذي وظف جيشه، وحكومته وماله وسلاحه، ورجاله لخدمة الدعوة، ومرت الدعوة بالمراحل الطبيعية من التعريف بها وإعداد من يحملها، ومغالبة أعدائها والتمكين لها، ومر الشيخ بسنة الابتلاء، ومارس سنة التدرج، وشرع في الأخذ بسنة تغيير النفوس، واستخدم سنة التدافع بين الحق والباطل، ولم يترك سنة الأخذ بالأسباب وهذا كله يدخل تحت فقه التمكين الذي مارسه الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

ثانياً: حركة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي:

هو أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين السرهندي، يتصل نسبه إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولد ليلة الجمعة 14 شوال 971 هـ - 1563 م بمدينة سرهند ببلاد الهند، وسماه والده «شيخ أحمد»، ونشأ الإمام السرهندي في بيئة متضاربة فكرياً، متعارضة عقدياً، مضطربة خلقياً، فقد ترعرع في عهد الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر، من أباطرة آل تيمور المغوليين الذي انحرف عن الإسلام وسيطرت عليه فكرة حلول الألف الثاني من عمر الإسلام وقد تأثر بدعوة بعض الفلاسفة المارقين عن الإسلام بقولهم أن عمر الإسلام الطبيعي ألف عام، أما وقد انقطعت، وبدأ الألف الثاني، فإن الدنيا في حاجة إلى عهد جديد تتابع فيه مسيرتها، كما أنها في حاجة ماسة إلى دين جديد يمارس النَّاس من خلاله حياتهم الدينية،

(1) انظر: استمرارية الدعوة (3/ 294).

وتشريع جديد ينظم شؤونهم ويدبر معاشهم، ويستغنون به عن الدين الذي سلف، وذهابه بذهاب ألف سنة من عمره، واستحوذت فكرة الدين الجديد على نفس الملك أكبر وشكل لجاناً لنشر الدين الجديد ونشرها في نواحي الهند، لقد كان ذلك الدين ـ الذي جاء به ـ يحتوي على الشرك بكل أنواعه وأصنافه، فدخلت عبادة الشمس والكواكب بدلاً من التوحيد الخالص، وأبدلت عقيدة البعث والنشور بعقيدة التناسخ، وأحل الدين الجديد الربا والقمار، والخمر والخنزير وأباح الزنا وصدر قانون بتنظيمه، وحرم ذبح البقر، وحرم الحجاب... إلخ.

وانتشرت النظريات الفلسفية التي كانت تؤمن بأن العقل وحده قادر على إدراك الحقائق الحاضرة منها والغائبة، حتى استغنوا بالعقل عن الرسل والرسالات وكل ما يتعلق بهما.

وفي خضم هذه الاضطرابات وتلك الفوضى، كان الإمام السرهندي قد قارب الثلاثين من عمره وكان قد تسلح بالعلوم الدينية، وأصول أهل السُنَّة وقد حباه الله ـ ﷻ ـ عقلاً راجحاً وفكراً ثاقباً وذوقاً مرهفاً، وقلباً واعياً، فاستعمل كل مواهبه لخدمة الإسلام والمسلمين ووقف متحدياً كل هذه الأفكار الضالة، كاشفاً عورات هذه السخافات والباع والخرافات بل عمل حتى وصل إلى بلاط الملك أكبر في عهد ابنه وتغير الدين الباطل الذي كانت عليه الدولة إلى دين الإسلام الصحيح[1].

منهج الإمام السرهندي للوصول إلى مرحلة التمكين:

1 ـ اهتم بتعليم وتربية مجموعات هائلة من أفراد الأمة وأعدهم إعداداً تربوياً، علمياً، دعوياً رفيع المستوى ثم أرسلهم إلى القرى والمدن لدعوة النَّاس.

2 ـ اهتم بنقد فكر الفلاسفة المنحرف، والصوفية الباطلة من أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وبين الطريق الصحيح لمعرفة الحق، والوصول اليقيني إلى معرفة الإله الواحد من خلال القرآن ومنهج أهل السُنَّة والجماعة.

3 ـ حارب كل أنواع الشرك ومن أقواله في ذلك: «إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الشرك بالله ـ ﷻ ـ وإن من يعتقد بصحة دينين، وصلاحيتهما في وقت واحد، فهو مشرك، وإن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك، ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحادّته ومعاداته، وإن التوحيد هو الاشمئزاز والتصور من كل شائبة من شوائب الشرك»[2].

(1) استمرارية الدعوة والدعاة (3/ 205 ـ 207).

(2) انظر: رجال الفكر والدعوة للندوي (3/ 226).

4 ـ اهتم بالدعوة إلى التوحيد الخالص، وخلود رسالة محمد ﷺ، ودعم وحدة المسلمين وإعادتهم إلى حظيرة الإسلام، وكان سبباً في حماية المسلمين في بلاد الهند من ردة محققة.

5 ـ قاوم المد الشيعي الذي اخترق البلاط الملكي في عهد نور الدين جهانكير ابن الملك أكبر ورفع راية أهل السُّنَّة جهاراً نهاراً، بل استطاع أن يصل إلى معسكر الملك وبلاطه بواسطة تلميذه بديع الدين السهارنبوري.

6 ـ اهتم بالأمراء الذين ظهر منهم تدين، وفيهم شهامة وحبٌ للخير، فهذا الأمير خان جهان وكان الملك جهانكير يحبه حباً جماً، ويعتمد عليه في كثير من شؤون الدولة كتب إليه السرهندي يحثه على نصرة دين الله فيقول له: «لو جمعتم بين ما تتبوؤون من منصب كبير، وبين العمل على الشريعة الإسلامية، لأديتم أمانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه وعممتموه، ولو جهدنا ـ نحن الفقراء ـ أنفسنا أعواماً طوالاً لما لحقنا بغبار أمثالكم من صقور الإسلام.

ألا نفوس أبيّات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان[1]

وكان لرسائله أثر طيب في التأثير على القادة والأمراء والتفافهم حول القرآن والسُّنَّة.

7 ـ استطاع الإمام السرهندي بعد جهاد مرير، وبلاء عظيم أن يصل إلى الملك نفسه وأصبح من حاشيته ولم يترك جلساء السوء ينفردون به، بل عمل على دعوة قواد الجيش وحاشية الملك إلى الإسلام الصحيح، وتأثروا بالإمام السرهندي لما رأوا فيه من حسن الخلق، وغزارة العلم، وإخلاص للدين، وزهد وورع متين، وحكمة في الدعوة إلى الله، ولقد تعاون أولئك القادة مع الإمام السرهندي من أجل التمكين لدين الله، وما هي إلا فترة وحيزة حتى أزيل دين الملك أكبر الذي فرضه على الرعية، وأعيد للإسلام مكانته الرفيعة[2].

لقد تأثر الملك جهانكير بمبادئ الإمام السرهندي وأقواله، فاستبدل الإلحاد بالإيمان، وأحل الإسلام محل الزندقة، وجاهر بذلك على رؤوس الملأ من قومه.

لقد أظهر الملك شعائر الإسلام ورفع أحكامه، وأعز أهله وبكى كثيراً على سابق تفريطه.

---

(1) انظر: استمرارية الدعوة (3/ 255).

(2) المصدر نفسه (3/ 250).

إن الإمام السرهندي مدرسة مهمة في فقه التمكين وله منهجية رائعة في أساليب الدعوة حققت نتائج عظيمة للمسلمين في الهند.

إن الاقتراب من رجال الدولة والملوك والأمراء من أجل دعوتهم إلى الإسلام وتمكين دينه قام به العلماء والدعاة من أمثال الإمام السرهندي وحققت نتائج طيبة في نصرة دين الله.

ثالثاً: الحركة الإسلامية في السودان:

إن ما قام به المسلمون في السودان من أروع تجارب التمكين المعاصرة، حيث استطاعت الحركة هناك ـ بعد توفيق الله ـ أن تمر بمراحل التمكين من تعريف المجتمع السوداني حقيقة الدعوة، واختيار العناصر لتحملها، إن وصول الإسلاميين في الحكم لم يأت من فراغ، وإنما جاء بعد كفاح مرير، وجهاد مشكور، وإعداد تربوي، وفكري، ودعوي، ومعنوي، ومادي، وأخذ بسنن التمكين، وفهم المعادلة المحلية، والإقليمية والدولية، وإعداد الكوادر التربوية، والسياسية، والإعلامية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأمنية، والعسكرية... إلخ، ودخلت في المجال السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والتعليمي، والاقتصادي وجهزت كوادر في كافة مجالات الدعوة، والحركة والتغيير، ودخلت المعترك السياسي في الستينات، وتعرضت لمحن ترتب عليها دخول زعمائها للسجن، واضطر بعضهم للهجرة، واستشهد آخرون ووسعت المعارضة للحكم تحت واجهة جبهة الميثاق الإسلامي بقيادة الترابي.

وفي عام 1977 م تصالح نظام النميري مع جبهة الميثاق واستفادت الحركة من هذه الفرصة التي كانت بسبب التواجد الشعبي والرصيد القومي، وكوادر الحركة المنظمة مما جعل حكومة النميري تضطر لمصالحتهم والاعتراف بقوتهم، فتصالح الاتجاه الإسلاميّ مع النظام العسكري واحتل قادة الحركة الإسلامية مناصب ومراكز قيادية في حزب الاتحاد الاشتراكي السوداني، وتقلدوا عدداً من الوزارات وكانت هذه التجربة متميزة وحققت للحركة الإسلامية بعض الإيجابيات من أهمها:

1 ـ تدريب عناصر وكوادر الحركة على قيادة بعض الوزارات، ومعرفة حقيقة الدولة عن قرب ومعرفة مواضع الضعف والقوة بطريق التجربة.

2 ـ معرفة قوة الحركة الحقيقية وهل لها القدرة على إدارة الدولة وحدها أم لا بد من الإعداد والسعي من أجل إكمال النقص والقصور الذي يظهر للقيادة من خلال الممارسة الميدانية.

3 ـ دحض شبهات العلمانيين القائلة بأن الإسلاميين لا يستطيعون أن يقودوا الوزارات وبالتالي فهم أعجز الحركات في إدارة دفة الدولة.

4 ـ التأثير على الوزراء وكبار رجال الدولة بالاحتكاك والمخالطة والمناقشة والحوار وتبادل الآراء وضرب أروع الأمثلة في الأمانة والعفة والصدق والمراقبة والدقة والتخطيط والإدارة.. إلخ.

5 ـ إزالة الحاجز النفسي الذي كان يفصل بين الحركة ومعارضيها وذلك بإعطاء فرصة للخصوم لتكوين فكرة سليمة عن الحركة، وإزالة المخاوف التي كانت في أذهان بعض المخلصين من الوطنيين، لقد اقتنعوا باعتدال الحركة وتحركها المسؤول الواعي، واحترامها للرأي الآخر؛ إذ أظهرت مرونة وقدرة على التنسيق والحوار مع الأحزاب والحكومة والشخصيات السياسية وبذلك أزيل الحاجز النفسي الذي كان يفصل بين الحركة والآخرين.

6 ـ طرحت أفكارها ومواقفها الإسلامية في الأحداث الدولية ودفعت الحكومة إلى الالتزام بها.

7 ـ اهتمت بدعم القضايا الإسلامية، مثل قضية فلسطين وغيرها.

8 ـ خفضت من حدة التوتر بين النظام وبين الإسلاميين وأضاعت الفرصة على أعداء الحركة وأعداء السودان الذين أرادوا أن يستمر الصراع بين الحركة والحكومة.

9 ـ واجهت الفساد الإداري والمالي، ودعمت السلك القضائي ووقفت معه من أجل العدل وإعادة الحقوق إلى أصحابها.

10 ـ أضافت للدعوة منابر أخرى ونشرت من خلالها فكرها ودعوتها وساهمت في تقوية الرأي الإسلاميّ في الشارع السوداني وغير ذلك من النتائج الإيجابية.

حاول النميري أن ينفرد بالسلطة في آخر عصره وأودع قادة الحركة الإسلامية في السجون إلا أن جهوده فشلت وتحالف الجيش مع الشعب وأسقط نظام النميري، وجاء سوار الذهب كمرحلة انتقالية ثم سلم البلاد إلى عصر الأحزاب التي تكالبت على امتصاص خيرات الشعب السوداني وساءت أحوال البلاد، وانهارت الديمقراطية وسعت الأطراف المختلفة للاستيلاء على الحكم، وتسابق الإسلاميون العسكريون مع بقية التنظيمات داخل القوات المسلحة واستطاعوا أن يصلوا إلى الحكم وتحالفوا مع الحركة الإسلامية التي اهتمت بدعوة الجيش كشريحة من شرائح المجتمع إلى الإسلام، وكان اهتمام الحركة بالجيش في السبعينات وما

تلاها، وامتد التواجد الدعوي للحركة الإسلامية إلى قطاعات واسعة من الجيش، بحيث تمكنت فيما بعد من تغيير الواقع بأقل الخسائر الممكنة، وأخف المجهودات المبذولة، موفرة الدماء والأموال ومحافظة على الوحدة بين أبناء الشعب السوداني.

شبهة والرد عليها:

رأى بعض الدعاة أن مسلك الانقلاب العسكري غير صحيح للوصول لمرحلة التمكين وقالوا: «إن فكرة الانقلاب العسكري فكرة غربية بل وأمريكية خالصة، فعندما تسلمت أمريكا قيادة العالم الغربي وجدت إنكلترا وفرنسا متحكمة في البلاد التي كانت تخضع لها عن طريق حفنة من أهل البلاد... أهلتها فرنسا وإنكلترا للحكم باسمها بعد خروجها. فلم يكن أمام الأمريكان طريق إلا الانقلاب العسكري الذي ينقض على كل المكتسبات كالدستور، والبرلمان فيلغيها.. ويلقي بالحفنة التي سلمتها القوى الغربية الأخرى مقاليد السلطة فيسحقها أو يزج بها في السجن...»[1].

الانقلاب العسكري معناه فرض اتجاه معين، ورأي معين أو شخص معين بل وإرهاب الشعب وليس تربيته، وإجباره بقوة السلاح لا بقوة الحجة، وتكون الغلبة لحجة القوة، لا لقوة الحجة والمنطق والإقناع، والكلمة الأخيرة للأقوى، لا للأتقى والأعلم، وللأحمق لا للأصلح..»[2].

ونقول: إن الشعوب الإسلامية لو ترك لها حق الخيار لاختارت الإسلام، فإذا كانت الأحزاب العلمانية تصر على مصادرة الحريات، ومنع الشريعة أن تسود وتحكم المسلمين واستطاعت مجموعة من الأخيار المسلمين أن تنزع الحكم من الأحزاب العلمانية وتطبق شرع الله يكون سعيها ذاك جهاد في سبيل الله تعالى، كيف لا وهم قد أزاحوا عن الأمة حكم الأحزاب العلمانية، والدساتير الوضعية، والقوانين البشرية وخلّصوا أمتهم من الظلم البشري والغطرسة الكفرية، وأعانوهم على تحكيم شرع ربهم، لقد تكلم العلماء في كتب السياسة الشرعية وغيرها عن انعقاد الإمامة بالغلبة والقهر، فيما بين المسلمين، فكيف لو انتزع الحكم من العلمانيين؟ ذهب جمهور فقهاء أهل السُّنَّة منهم الإمام أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، والنووي، وإمام الحرمين الجويني، وابن خلدون، وبعض علماء الحنفية وغيرهم إلى أن من غلب النَّاس واستولى على الخلافة بالقهر فإنه يصبح إماماً تجب طاعته[3] يقول الإمام أحمد بن

(1) تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية للطحان، ص 98.
(2) التغيير على منهاج النبوة لجمعة أمين عبد العزيز، ص 291.
(3) انظر: نظام الحكم في الإسلام، للدكتور عارف خليل أبو عيد، ص 126.

حنبل: «ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماماً»[1].

ويقول الإمام: يخرج عليه من يطلب الملك، فيكون مع هذا قوم ومع ذاك قوم تكون الجمعة مع من غلب، واحتج بالخبر المروي عن ابن عمر أنه صلى بأهل المدينة زمن الحرة وقال: «نحن مع من غلب»[2] وهذا مذهب الإمام الشافعي فقد روى البيهقي بإسناده عن حرملة قال سمعت الشافعي يقول: «كل من غلب على الخلافة بالسيف حتى يسمى خليفة، ويجمع النَّاس عليه فهو خليفة»[3].

وقال الإمام النووي: «أما الطريق الثالث فهو القهر والاستيلاء، فإن مات الإمام فتصدى للإمامة من جميع شرائطها من غير استخلاف ولا بيعة وقهر النَّاس بشوكته وجنوده انعقدت خلافته، لينتظم شمل المسلمين، فإن لم يكن جامعاً للشرائط بأن كان فاسقاً أو جاهلاً فوجهان، أصحهما انعقادها لما ذكر، وإن كان عاصياً بفعله»[4].

إن الذين يعطلون شرع الله تعالى، ويمنعون حق الأمة في الاختيار يجب إزاحتهم ولو بالقوة، فإن استطاعت حركة إسلامية في بلد ما أن تزيح حزباً علمانياً من على سدة الحكم، وعملت على إرجاع الشريعة والدستور الإسلاميّ ثم أعطت لشعبها حق الاختيار في من يشرف على تحكيم شرع الله ومن يقودها إلى العزة والنصر والتمكين؛ فذلك العمل العظيم يوافق مقاصد الشرع، وينسجم مع أصول الشريعة ولا يتعارض مع العقل ولا النقل ولا الفطرة.

إن الحركة الإسلامية في السودان استطاعت أن ترتقي بمؤسساتها حتى استطاعت أن تدير دولة في هذا الخضم من العداء بين الحق والباطل، فلم يتحرك الجيش بقيادة الإسلاميين للوصول للحكم إلا بالتعاون مع الحركة الإسلامية التي تغلغلت في كافة شرائح المجتمع السوداني؛ فأحسنت في إعدادها، وإن كان التقصير من صفات البشر ـ وأحسنت اختيارها لوقت التحرك وكان التوفيق الرباني حليفها، ونحن هنا لا ندعي لها الكمال؛ بل نقول بأنها وصلت إلى مرحلة من التمكين سرت المسلمين وأحزنت الدوائر العالمية المعادية للإسلام؛ فعملت على إسقاطها ولا زالت، وأظهرت الحركة كفاءة عالية في الجهاد، ومهارات رفيعة في

(1) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، انظر: استمرارية الدعوة (3/ 255).
(2) انظر: الأحكام السلطانية لأبي يعلى، نقلاً عن نظام الحكم في الإسلام، ص 126. .
(3) انظر: نظام الحكم في الإسلام، ص 127.
(4) روضة الطالبين (10/ 46).

الصراع السياسي، وكوادر خيّرة في كافة المجالات وهي تنتقل يوماً بعد يوم من الأسوأ إلى الأحسن، ولا زالت القوي اليهودية والنصرانية والعلمانية تسعى لإزالة تلك الدويلة الإسلامية من الوجود، والله غالب على أمره ولكن أكثر النَّاس لا يعلمون.

إن التجربة الإسلامية في السودان حريّ بأبناء الأمة وطلاب العلم فيها أن يدرسوها دراسة مستوعبة، ليستخرجوا منها الدروس والعبر لطلائع الحركات الإسلامية التي تسعى لتمكين شرع الله في الأرض.